الإسلام والوجدان

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع
٤ شارع سيد الخطيب - الثلاثيني العمرانية الغربية - الجيزة .
ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ - ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

الإسلام والوجدان

محمد يونس هاشم



دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث
الكتاب : الإسلام والوجدان .
المؤلف : محمد يونس هاشم
الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع ٤ شارع سيد الخطيب – الثلاثيني العمرانية الغربية – الجيزة .
ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ – ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١
الطبعة : ٢٠١٩
رقم الإيداع : ١٥٥٥٨

الهيئة العامة للكتاب

الفهرسة أثناء النشر

هاشم ، محمد يونس
الإسلام والوجدان ، محمد يونس هاشم ، الجيزة دار نوبل للنشر والتوزيع ٢٠١٩
ص ١٣٨ – ١٧ ×٢٤ سم
رقم الإيداع : ١٥٥٥٨
١– دراسات
٢– العنوان
ديوي ٢١٤.٥

المقدمة

الوجدان هو مجموع الأحاسيس والانفعالات والعواطف والاتجاهات والميول التي يتفاعل معها الإنسان أو يَتَأَثَّرُ بِهِا، مِنْ حب وكراهية وتعاطف ولَذَّةٍ أَوْ أَلَم وميل ونفور، إلى آخره من أحاسيس إنسانية مختلفة.

يتكوَّن الإنسان من : نفس ، وروح ، وعقل ، وقلب ، وجسد .

والقلب الذي هو محل الوجدان هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله .

" أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " [متفق عليه]

ويحتاج القلب إلى الإحساس بالأمن ، والحب ، والجمال ، والقبول ، والتناسق والنظام ...

إن مكونات الإنسان بينها اختلاف فلكل طبيعته الخاصة واحتياجاته الخاصة أيضاً ، ومع هذا الاختلاف لا يوجد بين هذه المكونات ثمة تناقض ؛ لأن التناقض معناه أن صحة أحد المتناقضين بطلان للآخر، فالحق نقيض بالباطل ، والإيمان نقيض الكفر ، والعدل نقيض الظلم...

وإذا كان هذا كذلك فإن مكونات الإنسان متكاملة رغم اختلافها ، فاختلافها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤]

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

والقرآن الكريم خاطب العقل ودلَّه على جوده ، ووجوب الإيمان به تعالى وحده لا شريك كما خاطب الوجدان ولفته إلى بديع خلق الله .

والمشاهد القرآنية التي عرضها الله تعالى في ملكوت السموات والأرض فيها خطاب للعقل والوجدان جميعاً ، وإن كان علماء الكلام ركَّزوا على الأدلة العقلية في الخطاب القرآني وأهملوا الإشارات الوجدانية ، فإن الزهاد والمتصوفة قد ركزوا على هذه الإشارات الوجدانية ، وإن جنح بها بعضهم عن سواء السبيل .

إن التدبُّر الصادق والنظرات العميقة في كتابي الله تعالى : المقروء ، والمنظور لتملأ العقل اقتناعاً بالبرهان ، وتملأ القلب إشراقاً بالإيمان ، وتملأ النفس شعوراً بالحب وإحساساً بالرحمة واستمساكاً بالإخلاص ، وتوقظ في المرء أحاسيس الخير ومشاعر الإنسانية وتصله أولاً وآخراً بالله الذي أنطق الأشياء كلها بالدلالة عليه وألهمهما أن تسبح بحمده وأن تسلم وجهها إليه.

وقد لفت القرآن نظرة المرء إلى كل أولئك ، وحثه أن يستشف معاني الجمال فيما يرى ، وأن يستجلي فيه دقائق الحكمة وينظر آثار الرحمة .

وللقرآن أساليبه الأخاذة المثيرة في إيقاظ العقول وتنبيه الشعور وتوجيهه إلى هذه الآيات ، والاعتبار بها والإفادة منها.

وللوجدان دور كبير في حياة الإنسان ؛ فالإنسان ليس آلة صماء لا تملك الحيوية الذاتية، والاندفاع الذاتي ، ولا تفكير لها ولا شعور ، كذلك

الإنسان ليس عقلاً خالصاً يتصرف بناء على تفكيره المجرد من الهوى والميول والانفعالات والمثيرات ، ولا وجداناً محضاً يتصرف وفق هواه وميوله فحسب ولا تأثير لعقله وفكره في أفعاله ، إنما الإنسان كل ذلك ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠]

فالله تعالى خلق للإنسان عقلاً ليتفكر ويتدبر ويفهم ويعقل ، وخلق له قلباً ليشعر ويحس ويهوى ويكره ، وللقلب تأثير كبير على العقل وعلى التفكير وأفعال الإنسان وسلوكه .

وفي هذا الكتاب حديث عن القلب محل الوجدان والمشاعر ، ومستقر الاعتقاد والإيمان ، ومستودع الأسرار ، ومنبع الذوق الفني والإحساس بالجمال والتناسق .

***

ما الوجدان ؟

الوجدان في اللغة

وِجْدَان: مصدر وَجَدَ ، ووِجْدَانُ الْمَرْءِ هو نَفْسُهُ وَقُوَاهُ البَاطِنِيَّةُ ، وهو مجموع الأحاسيس والانفعالات والعواطف والاتجاهات والميولات التي يتفاعل معها أو يَتَأَثَّرُ بِهِا، مِنْ حب وكراهية وتعاطف ولَذَّةٍ أَوْ أَلَم وميل ونفور، إلى آخره من أحاسيس إنسانية مختلفة.

ووَجَدَ به وَجْداً : في الحُبِّ لا غير ، وإِنه ليَجِدُ بفلانة وَجْداً شديداً إِذا كان يَهْواها ويُحِبُّها حُبّاً شديداً .

ووجَد الرجلُ في الحزْن وَجْداً : حَزِنَ . (١)

الوِجْدَانُ في الفلسفة يُطلَقُ أَوّلاً : على كلِّ إحساس أَوَّلِيٍّ باللَّذَّة أَو الأَلم .

وثانيًا : على ضَرْبٍ من الحالات النفسيَّة من حيثُ تأَثُّرُها باللَّذَّة أَو الأَلم في مقابل حالاتٍ أخرى تمتاز بالإدراك والمعرفة. (٢)

ولكي نعرف الفرق بين الوجدان وغيره من مكونات الإنسان نذكر في إيجاز مكونات الإنسان.

مكونات الإنسان

يتكوَّن الإنسان من : نفس ، وروح ، وعقل ، وقلب ، وجسد .

---

(١) ابن منظور " لسان العرب " .

(٢) مجمع اللغة العربية " المعجم الوسيط " .

١- الروح : هي نفخة من روح الله ، وهى ما بها حَياةُ الأَنْفُسِ ، وهى تهفو إلى معرفة الله ، وتطمئن بالإيمان به وعبادته سبحانه .

٢- النفس : هي ذات الإنسان وتشتمل على صفات الخير كما تشتمل على صفات الشر ، وتحتاج النفس إلى السلامة بعيداً عن المخاطر ، والاحترام ، والتقدير ، وأن تكون شيئاً مذكوراً ، والاستقلال ، والحرية ...

٣- العقل هو ما يكون به التفكيرُ والاستدلالُ وتركيبُ التصوُّرات والتصديقات ، وهو يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء .

٤- القلب : هو مجمع الوجدان والمشاعر ، وهو مستودع الأسرار ، كما أنه منبع الذوق الفني والإحساس بالجمال ، وهو مستقر الاعتقاد والإيمان ، وهو متقلب : يحب ويكره، ويعمى ويبصر، يفرح ويحزن ، يطمئن ويخاف ، ويصح ويمرض ، ويَرق ويغلظ ، يرحم ويقسو ...

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]

﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة : ٢٢٥]

ولقد لوحظ عند نقل قلب إلى شخص من غيره تتغير صفاته ، في الحب والكره ، والرقة والغلظة ، والرحمة والقسوة بل في الإيمان والكفر...

تقول د. فريدة الحبيب : " ظاهرة غريبة تتعلق بالمرضى الذين أجريت لهم عمليات زراعة قلب أثارت انتباه علماء وأطباء الولايات المتحدة

الأميركية، فبعد تغيير قلوبهم تغيرت أيضاً أمور جذرية عميقة في شخصيات هؤلاء المرضى، واكتسبوا بعض صفات أصحاب القلوب الأصلية " (١)

ويقول عبد الدائم الكحيل بعد دراسة متعمقة لمئات المرضى الذين نقلت إليهم قلوب طبيعية أو صناعية : " أن المريض بعد أن يتم استبدال قلبه بقلب طبيعي أو قلب صناعي، تحدث لديه تغيرات نفسية عميقة، بل إن التغيرات تحدث أحياناً في معتقداته، وما يحبه ويكرهه، بل وتؤثر على إيمانه أيضاً " (٢)

والقلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله .

" أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " [متفق عليه]

ويحتاج القلب إلى الإحساس بالأمن ، والحب ، والجمال ، والقبول ، والتناسق والنظام ...

٥- الجسد : هو البدن وما يحتوى عليه من الروح والنفس العقل والقلب والحواس وسائر الأعضاء وله حاجات فسيولوجية أساسية لازمة لحفظ الحياة وصحته النفسية وبقاء نوعه .

هذه هي مكونات الإنسان وهى كما بينا بينها اختلاف فلكل طبيعته الخاصة واحتياجاته الخاصة أيضاً ، ومع هذا الاختلاف لا يوجد بين هذه المكونات ثمة تناقض ؛ لأن التناقض معناه أن صحة أحد

---

(١) جريدة القبس الكويتية ١٩ مايو ٢٠١٠ .

(٢) موقع عبد الدائم الكحيل " أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " على الإنترنت .

المتناقضين بطلان للآخر ، فالحق نقيض بالباطل ، والإيمان نقيض الكفر ، والعدل نقيض الظلم ...

وإذا كان هذا كذلك فإن مكونات الإنسان متكاملة رغم اختلافها ، فاختلافها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

ما معنى هذا ؟

معنى هذا أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً وجسداً .

﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة : ١٣٨]

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠]

"كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " [متفق عليه]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

***

القرآن والوجدان

يقصد بالوجدان غالباً مجموعة العواطف والانفعالات التي يجدها الإنسان نحو الشيء ومجموعة الانطباعات التي يتركها الشيء في الإنسان .

والقرآن الكريم خاطب العقل ودلَّه على جوده ، ووجوب الإيمان به تعالى وحده لا شريك كما خاطب الوجدان ولفته إلى بديع خلق الله .

خطاب الله تعالى للعقل والوجدان

والمشاهد القرآنية التي عرضها الله تعالى في ملكوت السموات والأرض فيها خطاب للعقل والوجدان جميعاً ، وإن كان علماء الكلام ركَّزوا على الأدلة العقلية في الخطاب القرآني وأهملوا الإشارات الوجدانية ، فإن الزهاد والمتصوفة قد ركزوا على هذه الإشارات الوجدانية ، وإن جنح بها بعضهم عن سواء السبيل .

إن التدبُّر الصادق والنظرات العميقة في كتابي الله تعالى : المقروء ، والمنظور لتملأ العقل اقتناعاً بالبرهان ، وتملأ القلب إشراقاً بالإيمان ، وتملأ النفس شعوراً بالحب وإحساساً بالرحمة واستمساكاً بالإخلاص ، وتوقظ في المرء أحاسيس الخير ومشاعر الإنسانية وتصله أولاً وآخراً بالله الذي أنطق الأشياء كلها بالدلالة عليه وألهمهما أن تسبح بحمده وأن تسلم وجهها إليه.

وقد لفت القرآن نظر الإنسان لتدبر آياته المشاهدة والمقروءة ، وحثه أن يستشف معاني الجمال فيما يرى ، وأن يستجلي فيه دقائق الحكمة وينظر آثار الرحمة ، واقرأ إذا شئت هذه الآيات الكريمة :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ﴾ [ق : ٦-٩] .

والنظر إلى السماء لا يلفت عقل الإنسان للتدبر في كيفية خلقها وبنائها دون عيوب أو نقص من شقوق وصدوع وغيرها إنما يحرك قلب الإنسان ويثير وجدانه لاستشعار روعة السماء وبديع خلقها ، وعظمة مبدعها كذلك .

والأرض المنبسطة الممهدة وما فيها من جبال راسيات ومن جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع لا تلفت نظر العقل للتدبر والتفكر في كيفية خلقها والحكمة منها فحسب إنما تثير مشاعر وعواطف الإنسان لاستشعار جمال كل ذلك وبديع صنع الله تعالى وكمال خلقه ومظاهر رحمته تعالى فيها .

فيقتنع العقل بعظمة الخلق ويؤمن القلب بعظمة الخالق .

وللقرآن أساليبه الأخاذة المثيرة في إيقاظ العقول وتنبيه الشعور وتوجيهه إلى هذه الآيات ، والاعتبار بها والإفادة منها.

وهو يطيل ويقصر في عرض الآيات ويجمل ويفصِّل حسب اقتضاء الموقف وحسب اقتضاء الأسلوب ، فيقول مثلاً في بعض مواقفه مع الإنسان ، وفي أحد أساليبه في توجيهه:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾
[الغاشية:١٧ - ٢٠]

عجباً لمن ينتفع بالنعم التي لا تعدُّ ولا تحصى ويغْفُل عن التفكر فيها وفيمن خلقها ! هلاَّ نظر هذا الغافل إلى الإبل كيف خلقت على هيئتها البديعة هذه ، عظيمة الحجم متينة البنية شديد القوة ، وسأل نفسه من خلقها وذللها لتحمل الإنسان وأثقاله وتصبر على الجوع والعطش في قيظ النهار واتساع الصحراء ؟ ومن جعل ألبانها سائغة ، ولحومها شهيَّة ، وفي أوبارها وجلودها منافع كثيرة ؟

وهلاَّ نظر هذا الغافل إلى السماء وسأل نفسه كيف رفعت بلا عمد؟ وحُبِكَتْ بغير خَلَل .

وهلاَّ نظر إلى الجبال كيف أقيمت شامخة ، تمسك الأرض فلا تميل ولا تميد ؟

وإلى الأرض التي يتقلَّبون عليها كيف بسطت ومهدت ؟

وهذا الخطاب يشمل جميع مكونات الإنسان العقل والقلب والروح والنفس والجسد ليتفكر ويتدبر ويستشعر ويحس ويتذوق ويستمع ويسعد ويهنأ ويهتدي ويرشد ويؤمن ويعبد ويتوكل ويعمل .

فلا يظن بالنسبة للعقل أن كل هذا خُلق من غير خالق ، ولا يعتقد بالنسبة للقلب أن كل هذا الجمال وبديع الصنع خلق عبثاً ، ولا يستساغ بالنسبة للنفس أنها خلقت بلا هدف وأن تترك هملاً أن لا تؤمر ولا تنهى، ولا تثاب ولا تعاقب .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

[المؤمنون:١١٥]

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]

أثر الوجدان في سلوك الإنسان

للوجدان دور كبير في حياة الإنسان ؛ فالإنسان ليس آلة صماء لا تملك الحيوية الذاتية، والاندفاع الذاتي ، ولا تفكير لها ولا شعور ، كذلك الإنسان ليس عقلاً خالصاً يتصرف بناء على تفكيره المجرد من الهوى الميول والانفعالات والمثيرات ، ولا وجداناً محضاً يتصرف وفق هواه وميوله فحسب ولا تأثير لعقله وفكره في أفعاله .

فالله تعالى خلق للإنسان عقلاً ليتفكر ويتدبر ويفهم ويعقل ، وخلق له قلباً ليشعر ويحس ويهوى ويكره ، وللقلب تأثير كبير على العقل وعلى التفكير وأفعال الإنسان وسلوكه ؛ لذا يحذرنا الله تعالى من التأثير السلبي للهوى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:١٣٥] .

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص : ٢٦] .

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

[الكهف:٢٨]

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِين﴾

[القصص:٥٠]

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

[الجاثية:٢٣]

لذلك يقول النبي " لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به "

[صحيح البيهقي]

وبسبب أنّ للوجدان – عاطفة وانفعالاً – أثراً كبيراً في الفكر، وفي السلوك إذ يدفع نحو بعض المواقف ويمنع من بعض، يقرّر بعض

الأفكار، ويحول دون بعضها الآخر أكّد الإسلام في مفاهيمه الأخلاقية ومناهجه التربوية على كلّ من الميول النفسية (العواطف)، وعلى الاستجابات النفسية الثائرة من غضب، وفرح، ومن خوف، ورجاء.

مبدآن إسلاميان للحياة الوجدانية

وكان التأكيد الإسلامي، والعمل الذي تقوم به التربية الإسلامية، باتجاه الحياة الوجدانية للإنسان، مرتكزاً على أساسين أو مبدأين: هما :

* المبدأ الأوّل :

تكوين وجدان إسلامي خاص بالإنسان المسلم. وقد أعد الإسلام بهذا الصدد قائمة طويلة للمعاني التي يجب أن يُبنى عليها الإنسان المسلم، وتقوم على أساسه الشخصية الإسلامية والتي تتألّف من عناصر عديدة كحبّ الله تعالى، والأنس به، والاشتياق إليه والخوف منه، ورجاؤه والرضا بقضائه وقدره، وحبّ المؤمنين، وحبّ الرسالة، وبغض الكافرين، والمنحرفين، والشريرين، والسرور بالحسنة والتضايق من المعصية والانفتاح النفسي على الحياة والابتهاج بها إلى غير ذلك من المعاني الإسلامية الكثيرة في هذا المجال.. وتوجد إلى جانب ذلك عناصر سلبية في الوجدان المسلم.. كالزهد الذي يعني تفريغ الإنسان المسلم لوجدانه من حبّ الدنيا.. والخوف عليها ورجائها.

لماذا يصرّ الإسلام على تكوين وجدان خاص بالإنسان المسلم، ولا يكتفي منه بالعمل؟ إنّ السبب في هذا الإصرار من قبل الإسلام يعود إلى أمرين:

١- إنّ هدف الإسلام ليس مجموعة من التصرّفات، والمواقف، والحركات يؤدّيها الإنسان المسلم، وإنّما هو بناء الإنسان الصالح بكلّ

ما يعنيه الإنسان من الفكر، والروح والوجدان. والسلوك إنّ الإسلام يهدف إلى إيجاد صيغة جديدة للإنسان تختلف عن كلّ الصيغ المعروفة للإنسان في مختلف الحضارات، صيغة كاملة شاملة.. وليست محصورة ضمن نطاق الفعل، والسلوك الاجتماعي وبهذا يختلف الإسلام عن مجموعة من أنظمة الأرض التي لا تريد سوى أن تؤكّد سلطتها وسيطرتها السياسية، والاجتماعية على الناس..

٢- ينظر الإسلام إلى الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة يؤثّر كلّ جانب منها، وكلّ جزء في الجانب الآخر، والأجزاء الأُخرى، ومن هنا فهو يرى أنّ من غير الممكن أن نؤمّن جانباً من الشخصية الإنسانية دون تأمين كافة الجوانب الأخرى، ليس من الممكن للإسلام أن يحكم السلوك الاجتماعي، والسياسي للناس دون أن يغيّر من مضمونهم العاطفي، والانفعالي، والوجداني، ودون أن يغير من مفاهيمهم الحياتية ورؤاهم الفكرية حول الكون، والحياة كما لا يمكنه أن يؤكد على جوانب الفكر، والوجدان في شخصية الإنسان المسلم دون أن يؤكّد على جانب السلوك والنظام الاجتماعي، والسلطة الزمنية.

* المبدأ الثاني :

تحكيم الشريعة الدينية على العاطفة، والانفعال فمهما كانت العواطف، والانفعالات إنسانية نبيلة أو منحرفة فهي محكومة في شخصية الإنسان المسلم بشرع الله تعالى . (١)

وعلى هذا فالعاطفة والانفعال – ولو كانا مبدأين – يعتبرهما الإسلام (طاقة نفسية) لابدّ منها، أمّا الجهاز الحاكم في الشخصية فليس هو العاطفة، ولا الانفعال وإنّما تقوى الله تعالى واتباع شرعه .

---

(١) الشيخ حسين معن " نظرات حول الإعداد الروحي " نقلاً عن موقع " الموسوعة الإسلامية " بتصرف .

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة:١٢٠]

أي : قل يا محمد : إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى ، يعني : هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

وبعد التأكيد على اتباع هدى الله تعالى يأتي التهديد والوعيد الشديد للأمة عن اتباع الأهواء والميول والرغبات التي تتنافى مع هدي الله تعالى الذي علموه من القرآن والسنة ، والخطاب إن كان للرسول فإن الأمر لأمته.

فإنّ مقتضى العبودية لله تعالى هو، أن ينسجم الإنسان سلوكياً مع هداه تعالى .

حتى ولو كانت العواطف دينية فلا بد من أن تحكم بالشرع وفي ذلك يقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح : " لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به " بمعنى أنْ يكونَ طبْعُه وقلْبُه مُتابِعًا لما جاءَ به النَّبيُّ ﷺ مِن هذه الشَّريعةِ المطهَّرةِ الكاملةِ ؛ فإنَّ مَن أَحَبَّ شيئًا تَبِعَهُ هوَاهُ، ومالَ عن غيره إليهِ ووالاه؛ ولأنَّه ﷺ إنَّما جاءَ بشرائعِ الدِّينِ الكامِلَةِ، مِن الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، والنُّصحِ العامِّ والخاصِّ، والاستقامَةِ؛ فإذا كان هَواهُ تبعًا لِمَا جاءَ به الشَّارعُ مِن الدِّينِ، فهو المؤمِنُ حقًّا .

وعندما تتحكم الأهواء في شريعة الله – وإن كانت أهواء دينية غير محكومة بشرع الله – يكون الانحراف .

ولقد رأينا تنظيمات تستبيح دماء المسلمين المصونة بفتاوى يحكمها الهوى وليس الشرع الحكيم .

* * *

القلب محل الوجدان

قلنا إن القلب هو مستقر الاعتقاد والإيمان ، وهو مجمع الوجدان والمشاعر ، وهو مستودع الأسرار ، كما أنه منبع الذوق الفني والإحساس بالجمال والتناسق .

والقلب متقلب : يحب ويكره ، ويعمى ويبصر ، ويفرح ويحزن ، ويطمئن ويخاف، ويصح ويمرض ، ويَرقُّ ويغلظ ، ويرحم ويقسو ...

ويحتاج إلى الإيمان والإحساس بالأمن ، والحب ، والجمال ، والقبول، والتناسق والنظام ...

القلب أمير الأعضاء

لقد خلق الله تعالى القلب أميراً وجعل له سائر الأعضاء له رعية يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، فإذا صلح القلب صلح سائر الجسد ، وإذا فسد فسد سائر الجسد .

" إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " [متفق عليه]

لقد سبق النبي الأعظم ﷺ علماء الغرب إلى الحديث عن دور القلب وأهميته في صلاح النفس، بل إنه جعل للقلب دوراً مركزياً فإذا صلح هذا القلب فإن جميع أجهزة الجسد ستصلح، وإذا فسد فسوف تفسد جميع أنظمة الجسم، وهذا ما نراه اليوم وبخاصة في عمليات القلب الصناعي، حيث نرى بأن جميع أنظمة الجسم تضطرب . (١)

---

(١) موقع عبد الدائم الكحيل " أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " على الإنترنت .

أنواع القلوب

والقلب أنواع أربعة بيَّنها لنا الرسول الكريم .

" القُلوبُ أربعةٌ : قَلبٌ أجْرَدُ فيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وقلبٌ أغْلَفُ مَربوطٌ على غِلَافِهِ، وقلبٌ مَنْكُوسٌ، وقلبٌ مُصفَحٌ، فأمَّا القلبُ الأَجْرَدُ: فقلبُ المؤمِنِ سِرَاجُهُ فيهِ نورُهُ (أي ليس فيه غلٌّ ولا غشٌّ ، فهو على أصل الفطْرة ، فُنور الإيمان فيه يُزْهر) .

أمَّا القلبُ الأغْلَفُ: فقلبُ الكافرِ.(فقلب الكافر عَلَيه غِشَاءٌ عن سَماع الحَقّ وقَبوله) .

وأمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فقلبُ المُنافِقِ عَرَفَ، ثُمَّ أَنْكَرَ. (فذلك قلب رجع إلى الكفر بعد الإيمان) .

وأمَّا القَلبُ المُصْفَحُ: فقلبٌ فيهِ إيمَانٌ ونِفَاقٌ، فَمَثَلُ الإيمَانِ فيهِ كَمَثَلِ البَقْلَةِ يَمُدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ، ومثلُ النِّفاقِ فيهِ كَمَثَلِ القُرْحَةِ يَمُدُّهَا القَيْحُ والدَّمُ، فأيُّ المَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ على الأُخرى غَلَبَتْ عليْهِ " (المُصْفَح: الذي له وجْهان يَلْقى أهلَ الكُفْر بوجْهٍ وأهلَ الإيمان بوجْه. وصَفْحُ كل شيء: وجهُه وناحيتُه) [أخرجه أحمد وقال ابن كثير: إسناده جيد حسن]

القلب محل أمانة الدين

ولقد شاءت حكمة الله أن جعلت القلب محلاً لأمانة الدين كما بين ذلك النبيﷺ

" أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرّجَالِ . ثُمّ نَزَلَ الْقُرْآنُ . فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السّنّةِ " [متفق عليه]

تلك الأمانة التي كلف الله تعالى بها عباده ، والتي أشفقت السموات والأرض من حملها .

﴿إِنَّـا عَرَضْـنَا الأَمَانَـةَ عَلَـى الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّـهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً لِيُعَذِّبَ اللَّـهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧٢ –٧٣]

وبعد أن جعل الله تعالى أمانة الدين في قلب الإنسان أنزل الله تعالى الرسل والكتب ليتعلم الإنسان كيف يؤدى هذه الأمانة .

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٩٧]

أي أنزل الله تعالى القرآن على قلب النبي ﷺ لأن القلب هو محل الأمانة والإيمان.

والقلب الذي لم ينشرح للإيمان بالله وكتبه ورسله ضال وإن حصَّل معارف الدنيا جميعها ألا ترى أن العالم وصل إلى قمة التقدم العلمي والتقني ومع ذلك فإن كثيراً من سكانه لا يؤمن بالله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى : ٢ : ٤]

إن هؤلاء الكفرة لا يشك في صحة عقولهم إنما عميت قلوبهم عن رؤية الحق بيقين .

فالإيمان بالله لا يحتاج إلا لقلب سليم وعقل صحيح (١) وهما أعدل الأشياء قسمة بين البشر فكل إنسان يولد بهما صحيحين ، لكن المعاصي والفتن تطمس على القلوب فلا تنشرح للهدى وإن حاز صاحبها علم الأولين والآخرين ، أما إذا بقى القلب على أصل الفطرة

---

(١) فالجنون ، وعدم اكتمال نضج العقل يرفعان التكليف عن الإنسان لقول النبي ﷺ : " رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ. وعن الصبي حتى يحتلم. وعن المجنون حتى يعقل " .

فإنه بقليل من التدبر في الخلق ، أو عند سماع الهدى فإنه ينشرح للإيمان ويصدق بآيات الرحمن ، إن دين الله لا يحتاج لعبقري لكي يصدق به إنما يحتاج لسليم الفطرة ، سليم القلب لكي يؤمن به وإن لم يرزق نعمة البصر .

﴿أَ فلم يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦]

فالعمى عن الحق ليس عمى بصر إنما عمى القلب ، وجحود الإيمان ليس اختلال عقل إنما اختلال تدبر وتفكر .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧١] .

فالذي لا يؤمن بالله ليس فاقداً للحواس بل فاقد للإحساس فهو " أصم" عن سماع الحق ، " أبكم " عن التكلم به " أعمي" عن الإبصار له .

ويبين لنا القرآن الكريم أن الذين كفروا لم يكفروا بسبب الجهل بالحق إنما بسبب إنكارهم له بعد إذ بينه الله لهم .

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

[الجاثية : ٢٣]

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن

يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى : ١٣ – ١٤] .

ولقد خلق الله تعالى الإنسان مهيئاً لتحمل الأمانة ففطره على الإسلام: بقلب سليم يميل للإيمان بالله ، وعقل صحيح يُدلل على وجوده سبحانه، ونفس تطمئن بشرعه، وجوارح تسكن بطاعته جل في علاه .

﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠]

وهو معنى قوله ﷺ : " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ " [متفق عليه] .

إذن فقد فطر الله القلب على الإيمان به – سبحانه – وخشيته ومحبته، وأنزل الله الأديان وأرسل رسله الكرام لكي يعلموا الإنسان تفاصيل الإيمان وكيفية عبادة الله تعالى ، ومنهجه وشريعته ، فإذا تمكن الإيمان من قلب العبد قام حينئذٍ بأداء ما فرض الله عليه وانتهى عما نهاه عنه سبحانه ففاز في الدارين .

روى عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول الله قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فقيل يا رسولَ اللهِ كيف انشِراحُ الصدرِ قال إذا دخَل النورُ القلبَ انشَرَح الصدرُ قلْنا يا رسولَ اللهِ وكيف ذلك قالَ يدخلُ النورُ فيه فينفسِحُ له فقالَ وما علامةُ ذلك قالَ التجافي عن دارِ الغرورِ والإنابةُ إلى دارِ الخلودِ والاستعدادُ للموتِ قبل نزولِه " [رواه عبد الرزاق ، وابن جرير بنحوه وأخرجه ابن أبى حاتم]

أي إذا دخل الإيمان قلباً فإن صاحبه يكون همه طاعة الله في الدنيا للفوز برضا الله في الآخرة ، ولن يتأتى ذلك إلا بتطهير القلب من كل الشرور والآثام ، والتحلي بالإيمان وحسن الخلق .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلنا يا رسول الله من خير الناس؟ قال " خيرُ الناسِ ذُو القلبِ المخمُومِ واللسانِ الصَّادِقِ ، قِيلَ : ما القلبُ المخمُومِ ؟ قال : هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ الذي لا إِثْمَ فيه ولا بَغْيَ ولا حَسَدَ . قِيلَ : فَمَنْ على أَثَرِهِ ؟ قال : الَّذي يَشْنَأُ الدُّنيا ، ويُحِبُّ الآخِرةَ . قِيلَ : فمَنْ على أَثَرِهِ ؟ قال : مُؤمِنٌ في خُلُقٍ حَسَنٍ."[صحيح ابن ماجه]

والإيمان الصحيح تصديق بالقلب وعمل بالجوارح ، ولقد قرن الله تعالى الإيمان بالعمل الصالح في أكثر من خمسة وثلاثين موضعاً في آي القرآن الكريم منها :

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [البقرة : ٢٥]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٧]

ولقد بشر الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات في أكثر من ثلاث عشرة آية منها بالجنة وما فيها من نعيم دائم منها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود : ٢٣] .

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ [إبراهيم : ٢٣]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف : ٣٠ – ٣١]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً {١٠٧} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف : ١٠٧ – ١٠٨]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس : ٩] .

ولقد جعلهم الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن خلقه ، وفضلهم على كل من خلق تفضيلاً .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾

[البينة : ٧]

وذكر الله تعالى أنهم قليلون .

﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص : ٢٤]

" وأصل الإيمان التصديق، وأصل الإسلام الاستسلام والانقياد، فقد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غير منقاد في الباطن ، وقد يكون صادقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر . و جعل النبي ﷺ " الإسلام " اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل " الإيمان " اسماً لما بطن من الاعتقاد " (١)

فإذا تطهر القلب من أمراض القلوب وامتلأ بأنوار الإيمان فليس لصاحبه إلا الجنة ، أما إن أطاع الشيطان ، واتبع هواه ، وغرته الحياة الدنيا ، وانغمس في الشهوات انطفأ نور الله الذي يملأ قلبه، وصار قلبه أسود مظلماً فيطبع الله عليه.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي " باب الإيمان " ج ١ ص ١٤٥

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار بلاء وفتن وغرور للإنسان ﴿لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾
[الأنفال : ٣٧]

الكفر نزع الإيمان من القلب وحشوه بالمعاصي والآثام فلا يعرف الإيمان طريقاً إلى قلب الكافر مهما رأى صاحبه من آيات الله ومعجزات رسله .

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾

[الأعراف : ١١١]

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ {٥٨} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٨ – ٥٩] .

كيف ترفع الأمانة من القلب

وعلاقة القلب بدين الله وشرعه يوضحها لنا رسولنا الكريم الذي أوتى جوامع الكلم في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: حَدّثَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ. حَدّثَنَا "أَنّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرّجَالِ. ثُمّ نَزَلَ الْقُرْآنُ. فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السّنّةِ". ثُمّ حَدّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ: "يَنَامُ الرّجُلُ النّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ (الأثر اليسير) ، ثُمّ يَنَامُ النّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ. فَيَظَلّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ (المَجْلُ: أن يكونَ بين الجِلْدِ واللحمِ ماءٌ) . كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ (مثل المجل) فَتَرَاهُ مُنْتَبِرا وَلَيْسَ

فِيهِ شَيْءٌ (ثُمّ أَخَذَ حَصىً فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) فَيُصْبِحُ النّاسُ يَتَبَايَعُونَ. لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدّى الأَمَانَةَ حَتّى يُقَالَ: إِنّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينا. حَتّى يُقَالَ لِلرّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ " [متفق عليه]

فالأمانة هي مناط التكليف ومحلها القلب ثم أنزل الله القرآن الكريم وجعل الإيمان بما فيه من عقائد محله القلب ، وعلمنا النبي أن رفع الأمانة يكون بفساد القلب وإشرابه للفتن فيرتكب المعاصي من كفر ونفاق وظلم .. ، أما من عمَّر قلبه بالإيمان فيظل قلبه سليماً لا تؤثر فيه الفتن ولهذا كان النبي ﷺ يقول: " يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ).[صحيح ابن ماجه والحاكم وأحمد] .

القلب والفتن

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنّا عِنْدَ عُمَرَ. فَقَالَ: أَيّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرّجُلِ في أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفّرُهَا الصّلاَةُ وَالصّيَامُ وَالصّدَقَةُ. وَلَكِنْ أَيّكُمْ سَمِعَ النبي ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ التي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ. فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ، لله أَبُوكَ!

قَالَ حُذَيْفَةُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ : " تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودا عُودا. فَأَى قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ. وَأَى قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ. حَتّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصّفَا. فَلاَ تَضُرّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ. وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَاداً (مائل للسواد) كَالْكُوزِ (إناء كالأبريق) مُجَخّيا (تجخى الكوز انكبّ) لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً. إِلاّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ " [رواه مسلم]

ولقد جعل الله تعالى دخول الجنة قاصراً على صاحب القلب السليم من أمراض القلوب ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِى الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ [ق : ٣١-٣٤] .

﴿وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٥-٨٩] .

" ولقد خص الله تعالى القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح والقلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض ..﴾ ؛ ولأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك " (١)

القلب محل النية

والنية هي أساس كل الأعمال فشرط قبول العمل أن يكون لله خاصاً وأن يكون وفق ما شرع قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا أُمِروا إلاَّ ليعبُدوا اللّه مُخلِصِينَ لَهُ الدّين حُنفاء﴾ [البينة : ٥]

ويقول النبي ﷺ : " إن اللّه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه" [رواه أبو داود والنسائى] .

فمن ابتغى غير وجه الله بعمله فلا أجر له ولا ثواب من الله وإن صام وصلى وتصدق وجاهد وهؤلاء أهل الرياء .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٣ .

يقول رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ " أَنَّ اللَّـهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِىَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّـهُ لِلْقَارِئِ أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِى قَالَ بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ قَالَ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللَّـهُ لَـهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فُلاَنًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ قَالَ بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ قَالَ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ.

فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّـهُ تَعَالَى بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِى قُتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّـهُ لَـهُ فِى مَاذَا قُتِلْتَ فَيَقُولُ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِى سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّـهُ تَعَالَى لَـهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَرِىءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ». ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتِى فَقَالَ : " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلاَثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

[صحيح الترمذي والحاكم]

كذلك من أشرك في العمل مع الله غيره من الناس فلا ثواب لـه وفـي الحديث القدسـي: "يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك "

[صحيح ابن ماجه والبيهقي]

إذن النية هي أساس قبول العمل وبقدر النية يؤجر صاحبها ، فالله تعالى لا ينظر إلى ظاهر العمل ولا إلى صورة صاحبة إنما ينظر إلى قصد صاحبه منه ، وما انعقدت نيته عليه .

" إنَّ الله لا ينْظُرُ إلى أجْسَامِكُمْ ، ولا إلى صُوَرِكمْ ، وَلَكن ينْظُرُ إلى قُلُوبِكمْ وأعمالكم " [متفق عليه]

ألا ترى أن المنافقين يصلون ويصومون ويجاهدون ويؤدون عبادات الجوارح ولكن بسبب فساد قلوبهم فإن مصيرهم أسوأ مصير في الدرك الأسفل من النار ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٥] .

واستحقوا هذا المصير ، رغم عبادتهم الظاهرية ، لأنهم أرادوا بأعمالهم وجه الناس لا وجه الله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

[النساء : ١٤٢]

ونية المؤمن خير من عمله إن كان هناك مانع شرعي من أداء العمل، وأداء العمل بغير نية لا ينفعه ، ويؤكد النبي ﷺ هذا المعنى بأمثلة كثير منها قوله ﷺ " مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ " [رواه مسلم]

وقوله ﷺ " مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقاً أُعْطِيَهَا ولو لَمْ تُصِبْهُ " [مسلم]

وقوله ﷺ " مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ فَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَا لِهَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالا وَلا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ " [صحيح أحمد وابن ماجه] .

ومن كرم الله تعالى أن من نوى فعل حسنة ولم يفعلها– بسبب عذر شرعي – كتبها له حسنة ، فإن فعلها كتب الله له بها عشراً إلى سبعمائة والله يضاعف لمن يشاء بحسب نيته ، ومن نوى سيئة ولم يفعلها مخافة الله كتب الله له بتركها حسنة فإن فعلها كتب الله عليه سيئة واحدة فإن تاب عنها توبة نصوحاً أبدلها الله تعالى له حسنة .

قال رسول اللّه ﷺ " إن ربكم عزَّ وجلَّ رحيم ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً " [رواه مسلم] .

الهمُّ العارض والهمُّ العازم

ويجب التفرقة بين الهمِّ العارض والهمِّ العازم . فالهمُّ العارض هو ما يخطر في النفس ولا يثبت في القلب ؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه . فهو وسوسة شيطان أو هوى نفس لكنه لا ينعقد في القلب بل يستعيذ المؤمن منه بالله ، ويجاهد بتقوى الله هواه فيكافئه الله تعالى بفرحتين : فرحة عاجلة وهى حلاوة يجدها في قلبه (١) وفرحة آجلة بحسنات يجدها في كتابه . وهذا النوع هو الذي قال فيه النبي ﷺ " من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة.."

أما الهمُّ العازم فهو انعقاد النية والتماس كافة الأسباب الموطئة للفعل وهو نوعان : همٌّ عازم لفعل خير وهذا يثاب المرء عليه وإن لم يفعله – إن كان هناك مانع شرعي – والأخر هو الهمُّ العازم لفعل شر وهذا يُحاسب الإنسان عليه وإن لم يفعله بسبب مانع قهري خارج عن إرادته .

---

(١) أخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ "النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه إيماناً يجد حلاوته في قلبه " .

فمن دبر مالاً ليشترى به زجاجة خمر مثلاً ، ثم ذهب إلى أحد المحال التي تبيعها واشترى إحداها ، وأعد العدة ليتجرع كئوسها وعندما همَّ أن يمسك الزجاجة إذا بها تسقط من يده فتتكسر ويقف أمامها يتحسر على ما فيها من خمر مراق إن هذا الرجل ليعد شارباً للخمر وإن لم يتجرع منها قطرة واحدة لأنه كان عازماً على شربها والذي منعه من شربها ليس خوفه من الله تعالى إنما انكسار الزجاجة ، هذا بخلاف من همّ أن يشرب الخمر فتذكر الله تعالى وتذكر عذابه فكسر الزجاجة مخافة الله تعالى فهو مأجور إن شاء الله وسيكتب له حسنة .

كذلك من همَّ بقتل رجل فرصد حركاته واشترى بندقية واختبأ له منتظراً مروره وعندما رآه صوب البندقية ناحيته وأطلق عليه الرصاص لكن الرصاص أخطأه وتجمع الناس ففر هارباً قبل أن يمسكوا به فإن هذا الرجل قاتل وإن لم يرق قطرة دم لأنه كان عازماً ومصراً ومترصداً واتخذ كل التدابير للقتل لكن لسبب خارج عن إرادته لم يفلح في القتل ، بخلاف من همَّ بقتل إنسان لكنه تذكر الله تعالى فندم على الهمَّ وعدل عن الفعل فهو مثاب لتركه الحرام مخافة الله .

وكذلك امرأة العزيز عزمت على ارتكاب الفاحشة مع سيدنا يوسف ورتبت الأمر وخططت له فغلقت الأبواب وتزينت و.. لكن رفْض يوسف لإغوائها ودخول العزيز عليهما حالا دون ارتكابها الفاحشة فبعزمها هذا آثمة ، أما يوسف فكان همه همّاً عارضاً ولم يكن عازماً لذا قال لها يوسف ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

وتعترف امرأة العزيز بأنها كانت عازمة على ارتكاب الفاحشة ومازالت على عزمها هذا بعكس يوسف الذي كان معتصما بالله ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

فلا عجب إذن أن نجد أهل الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما يستهلون مصنفاتهم بحديث " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.. "

قال الإمام أبو سليمان الخَطَّابى رحمه اللّه: كان المتقدمون من شيوخنا يستحبُّون تقديم حديث الأعمال بالنيّة أمامَ كل شيء ينشأ ويبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها. وبلغنا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قال: إنما يُحْفَظُكُ الرجلُ على قدر نيّته. وقال غيرُه: إنما يُعطى الناسُ على قدر نيّاتهم." (١)

القلب والعادات والعبادات

وكما أن العبادات لا تقبل بغير نية خاصة لله فإن العادات المباحة تتحول لعبادات بالنية الصالحة ! فمن نوى بكسبه وعمله الدنيوي الاستعانة بذلك على القيام بحق الله وحقوق الخلق واستصحب هذه النية الصالحة في أكله وشربه ونومه وجِماعه انقلبت العادات في حقه إلى عبادات وبارك الله في عمله وفتح له من أبواب الخير والرزق أموراً لا يحتسبها ولا تخطر له على بال ،ومن فاتته هذه النية لجهله أو تهاونه فقد حرم خيراً عظيماً .

فكل عادة إذا أردت بها طاعة الله وامتثالاً لشرعه من المباحات التي أباحها الله تعالى فهي عبادة يؤجر صاحبها عليها حتى اللقمة التي يضعها الرجل في فم زوجته لقوله ﷺ : " وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا في في(فم) امْرَأَتِكَ "
[متفق عليه]

(١) الإمام النووي في مقدمة كتاب " الأذكار " .

ففي الحديث استحباب الإنفاق في وجوه الخير، وفيه أن الأعمال بالنيات، وأنه إنما يثاب على عمله بنيته، وفيه أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه الله تعالى، وفيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى صار طاعة ويثاب عليه وقد نبه ﷺ على هذا بقوله ﷺ : حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى حصل له الأجر بذلك . (١)

ويؤكد الأمام النووي هذه القاعدة فيقول " إن الإنسان إذا فعل شيئاً أصله على الإباحة وقصد به وجه الله تعالى يثاب عليه وذلك كالأكل بنية التقوى على طاعة الله تعالى والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطاً والاستمتاع بزوجته ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام وليقضي حقها وليحصل ولداً صالحاً، وهذا معنى قوله ﷺ : " وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ " (٢)

فهل مسلمو اليوم قد عقدوا نياتهم على طاعة الله ؟ هل راقبوا الله في أعمالهم وأقوالهم ؟ هل أتقنوا أعمالهم مخافة الله وابتغاء رضاه ؟

اللهم لا .. إلا من رحم ربي .

***

---

(١) الإمام النووي " صحيح مسلم بشرح النووي " ج١١ ص ٧٨ .
(٢) نفسه ج١١ ص ٧٨ .

القلب والحب

والقلب هو أيضاً مجمع الوجدان ، فإن آمن القلب واهتدى حبب الله إليه الإيمان وكره إليه الكفر والفسوق العصيان ،

﴿وَلَكِنَّ اللَّـهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَـهُ فـي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات : ٧]

وإن ضل القلب طريق الله سكن فيه الشيطان وحبب إليه الكفر والمعاصي والآثام و كره إليه الإيمان والهدى .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّـهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة : ١٦٥]

ومن صفات هؤلاء الكفرة الفجرة حب الدنيا وكراهية الآخرة ، ليس ذلك فحسب بل ويصدون الناس عن سبيل الله .

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَـى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّـهِ وَيَبْغُونَـهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم : ٣]

﴿إِنَّ هَؤُلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلا﴾ [الإنسان : ٢٧]

﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة : ٢٠ – ٢١]

سمات من يحبون الله ورسوله

ومن أحب الله أحب أوامره وأحب كل من يحبه الله تعالى ، وأبغض نواهيه تعالى وأبغض كل من يبغضه الله تعالى .

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١]

عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : "أَحِبّوا اللّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبّونِي بِحُبّ اللّهِ، وَأَحِبّوا أَهْلَ بَيْتِي لحُبّي "

[رواه الترمذى والحاكم]

وعن أنس أن أعرابياً قال لرَسُول اللَّهِ ﷺ : متى الساعة ؟ قال له رَسُول اللَّهِ ﷺ : " ما أعددت لها ؟ " قال : حب اللَّه ورسوله. قال : " أنت مع من أحببت " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] .

فمن ادعى حب الله ولم يلتزم شرعه فهو دَعِيٌّ كاذب ، وصدق الشافعي حين قال:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه * هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته * إن المحب لمن يحب مطيع

ولقد ادعى أقوام حب الله ولم يؤمنوا بدينه الذي ارتضى لهم ، بل غلوا في دينهم وزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه فنعى الله تعالى عليهم هذه الدعاوى الباطلة .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فلم يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨]

وكذلك فعل غلاة الصوفية والشيعة ادعوا حب الله ورسوله وآل بيته ولم يلتزموا شرع الله وسنة نبيه وهما دليلا حب الله ورسوله .

فطريق محبة الله تعالى حب رسوله ﷺ وعلامة حبه ﷺ اتباع شريعة الله التي جاء بها . روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] قال: "على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس "

[رواه الترمذي]

وفسر العلماء محبة الله لعبده بأنها إرادته الخير له وهدايته ورحمته ، ونقيض ذلك بغض الله له .

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] .

ويقول الحبيب المصطفي ﷺ : " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ " [متفق عليه]

وإن للإيمان لحلاوة لا يذوقها إلا من رضى بالله ربا وإلها وبمحمد نبيا ورسولا وبالإسلام ديناً خاتماً .

" ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا "

[رواه مسلم]

فإن كان الله ورسوله أحب للعبد مما سواهما ، وكان الكفر بهما أبغض إليه من إلقائه في النار ، وإن كان يحب لله ويبغض لله . إن اجتمعت هذه الثلاث في عبد وجد حلاوة الإيمان .

" ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمّا سِواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ " [متفق عليه] .

ووجبت محبة الله تعالى لمن أحبه وأطاع نبيه ، ويظله بظله يوم لا ظل إلا ظله . قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يَقُولُ : "

حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ " [رواه أحمد والطبراني وغيرهما] .

وينعم الله على من أحبه بحب أهل السماء والأرض .

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : " إن الله إذا أَحَبَّ عبداً دعا جبريل فقال إني أُحِبُّ فلانا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جبريل ثم ينادى في السماء إن الله يحب فلاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أهل السماء ثم يُوضَعُ له القبول في الأرض وإذا أَبْغَضَ عبداً دعا جبريل فيقول إني أُبْغِضُ فلانا فَأَبْغِضْهُ فَيُبْغِضُهُ جبريل ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فَأَبْغِضُوهُ فَيُبْغِضُونَهُ ثم تُوضع له البغضاء في الأرض " [رواه مسلم] .

حب الشهوات

ومن الابتلاءات التي ابتلى الله بها الناس حب الشهوات : من نساء ، وأولاد ، ومال ،.. وسائر متاع الدنيا .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١١٤] .

لكن الله بين أن الإيمان والعمل الصالح خير ثواباً عند الله فهو الذي يبقى وتفنى الدنيا وما فيها .

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

أما من أحب متاع الدنيا وكفر بالمنعم سبحانه فأولئك هم الكافرون .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [النحل : ١٠٧] .
ومن صفات هؤلاء الكافرين والعصاة أيضاً الحب الشديد للمال .
{ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } [الفجر : ٢٠] .
وحب الكفر وكره الإيمان .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾
[التوبة : ٢٣]
﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت : ١٧]

القلب محل التقوى

التقوى من أعمال القلوب وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٣]
ولقد حدد النبي ﷺ مكان التقوى وهو القلب فقال ﷺ :
" التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ " [رواه مسلم]
ولقد جعل الله تعالى تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب .

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢]

يقول القرطبي : " قال عطاء بن أبى رباح : شعائر الله جميع ما أمر الله به ونهى عنه. وقال الحسن: دين الله قلت: وهذا القول هو الراجح الذي يقدم على غيره لعمومه ." (١)

---

(١) تفسير القرطبى ج٦ ص ٣٧

لكن ما هي تقوى الله ؟

التقوى هي العمل بطاعة الله على وفق منهجه ورجاء رحمته ، وترك معصية الله على وفق منهجه وخوفاً من عقابه .

وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفتهم رهبته عن معاصيه وردتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم من زلة .

لذا لا عجب أن يخبر الرسول ﷺ أن أكثر ما يُدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾

[الزمر : ٧٣]

ولما كان طريق الحق طويل وشاق ويحتاج إلى زاد كثير فإن الله أمرنا أن نتزود بتقوى الله فإنها خير زاد على طاعة الله .

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾

[البقرة : ١٩٧]

***

القلب والجمال

القلب وحب الجمال

لقد جَبَلَ الله تعالى القلوب على حب الجمال بشتى صوره ، والنظام، والتناسق ؛ فتجد القلب يسعد لرؤية الحدائق والبساتين وكل منظر بديع، ويستلذ لصوت البلابل والعنادل وخرير الماء وحفيف الأشجار وكل صوت جميل ، وتتعشه رائحة الطيب ، ونسمة الهواء العليل .

لقد فطر الله القلب على عشق النظام وبغض الفوضى والإهمال ألا ترى القلب ينشرح برؤية الشمس عند الغروب ، والأزهار البديعة في الربيع ، ومنظر القمر عند التمام ، والوجه الحسن في الأنام ، وينطلق لسان المؤمن عند رؤية شيء من بديع خلق الله ويقول " الله .. الله " كما ينقبض القلب ويضيق بالقبيح من المناظر والأصوات والروائح ، فينقبض برؤية الجيف والقمامة ، ويضيق بسماع الضوضاء والأصوات المنكرة ، ويكاد ينفطر بشم الروائح الخبيثة .

ومن كثرة القبح والفوضى والتلوث بشتى صوره وأنواعه اعتاد الناس على القبيح ولم يعد يزعجهم الضجيج ، وتصالحوا مع الفوضى ونسوا الجمال والهدوء والنظام ولم يعودوا بحاجة إلى شيء منها ! فإذا سرت في طريق غشيت بصرك صور القمامة والفوضى والإهمال في كل مكان واخترقت أذنك أصوات أفراح ومآتم وسيارات ومشاجرات ، وزكمت أنفك روائح قمامة وعرق ودخان وتراب ...

والمدهش إننا بعد كل هذا نتساءل لماذا كثرت أمراض السكر وضغط الدم والفشل الكلوي وقرحة المعدة فضلاً عن الأمراض النفسية والعصبية والعقلية ؟!

وكأن هذه الأمراض قد صدَّرها لنا أعداؤنا فقد اعتدنا أن ننسب كل فساد للأمريكان وكل فشل لليهود وكل مصيبة لشياطين الإنس والجن من الغرب الرجيم! مع أن هذا الغرب يتسم بالنظام والنظافة والجمال ليتنا نكف عن هذه النغمة فقد مللنا سماع نغمة الضحية والجزار ونفكر كيف نصلح أنفسنا ونرقى بمجتمعاتنا ونسير للإمام ؟

والمحزن حقاً أن كثيراً من المصريين استغلوا ثورة الخامس والعشرين من يناير وما صحبها من انفلات أمني ، وانكسار هيبة الدولة في ارتكاب مزيد من المخالفات ؛ فكثرت القمامة ، وزادت الضوضاء ، اضطرب النظام .

وكنا نأمل أن تكون هناك ثورة على القبح والفوضى والإهمال كما كانت على هناك ثورة على المستبدين الفاسدين .

حب النساء

ومما حبب الله للقلوب عشق النساء والميل إليهن ولولا تلك الفطرة ما تزوج الرجال النساء ولا عُمِّر الكون فميل كل نوع من كل جنس لنوعه الآخر تدبير من الله لتعمير الكون ، فالأليف يحن إلى أليفه لذا يتناكح الإنس ، وتتزاوج الحيوانات والطيور ، وتتلاقح النباتات .

ولقد صرح النبي ﷺ بأن الله حبب إليه من الدنيا النساء والرائحة الزكية .

" حُبِّب إليَّ النساءُ ، والطِّيبُ ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصلاة "

[رواه النسائى وأحمد]

وجعل النبي ﷺ المرأة الصالحة خير متاع الدنيا .

" الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ " [رواه مسلم] .

والحب قدر وابتلاء لا خيار للإنسان فيه لذا يقول النبي ﷺ معتذراً إلى الله عن ميله لبعض زوجاته أكثر من غيرهن دون الإخلال بالعدل بينهن جميعاً .

عن عائشة " أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " قال الترمذي يعنى به الحب والمودة، كذلك فسره أهل العلم " (١)

ولقد طلب سيدنا يوسف من الله تعالى أن يصرف عنه كيد النساء حتى لا يصبو إليهن .

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَى مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف : ٣٣] .

لذا جعل الله تعالى فتنة النساء في صدر الفتن التي يبتلى الله بها الإنسان فقال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران : ١٤]

وجعل النبي فتنة النساء هي أعظم الفتن للرجال .

عن النبي ﷺ قَالَ: "مَا تَرَكْتُ بَعْدِى في النّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرّجَالِ مِنَ النّسَاءِ " [متفق عليه] .

لأن الطباع كثيراً ما تميل إلي النساء وتقع في الحرام لأجلهن وتسعى للقتال والعداوة بسببهن .

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ج ٩ ص ٣١٣

ولقد جاءت شريعة الإسلام بالمنهج الأمثل ، والشرع الأحكم الذي يعالج العلاقة بين الرجال والنساء فحرم الرهبانية التي جاءت بها المسيحية لأنها كبت لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها وهى ميل الذكر للأنثى والعكس ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد : ٢٧] لقد ابتدع المسيحيون هذه الرهبانية – الزُّهْدُ في الدُّنْيا والاِنْقِطاعُ عَنْ ملَذَّاتِها وَعَنِ الزَّواجِ – ولم يكتب الله تعالى عليهم هذا بل شرع الله لهم التمتع بالطيبات من الرزق من غير إسراف ، كما شرع لهم الزواج بالمحصنات وحرم عليهم اتخاذ الأخدان . وسوف نستوف هذا الموضوع عند حديثنا عن الغريزة الجنسية .

وكما حرَّم الله تعالى الرهبانية والانقطاع عن الزواج حرَّم كذلك الإباحية والزنا والفجور وكل سبيل يؤدي إلى إثارة الغرائز ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء : ٣٢].

أي : ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلاً عن الوقوع فيه ذاته .

أنواع الحب

والحب أنواع كثيرة منها : حب الله ورسوله ، والحب في الله ، وحب الوطن ، وحب الأهل والأقارب ، وحب النساء . وحب النساء أنواع ودرجات .

المتحابون في الله

إن المتحابين في الله من غير قرابة ولا نسب، ومن غير مصلحة ولا غرض، ولا شبهة رياء أو هوى في أسمى الدراجات عند الله تعالى وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

" إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى " .

قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ : " هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ ". وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[رواه النسائي وابن حبان وأحمد]

وعن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: حقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحابِّينَ فِيَّ ، وحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ ، وحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ "

[صحيح الترغيب]

وعن معاذ بن جبل قال " قال اللهُ عزَّ وجلَّ المتحابونَ في جلالي لهم منابرُ من نورٍ يغبطُهم النَّبيُّونَ والشهداءُ " [صحيح الترمذي]

والحب في الله ثاني ثلاثة من فعلها وجد حلاوة الإيمان .
" ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمّا سِواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ " [متفق عليه] .
والحب في الله فضيلة عزت في زماننا هذا الذي طغت فيه المصالح على كل شيء ولا يُظْهر لك الشخص المحبة إلا وكان له مأرب من ورائها ، ومن ودك فاعلم أنها لمصلحة فإن قلاك فاعلم أنها انقضت إلا من رحم ربى .

فإذا كان الإنسان مسئولاً أو ذا مال أو جاه أو سلطان كثر أحباؤه فإن فقد ماله أو سلطانه لم يعد يعرفه أحد إلا المتحابون في الله فاستحقوا محبة الله والدرجة الرفيعة التي أعدها لهم .

واستحقوا أن يكونوا من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله .

" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهِ الإِمَامُ الْعَدْلُ وَرَجُلٌ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا في اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا لاَ تَعْلَمُ يَمِينُهُ مَا يُنْفِقُ بِشِمَالِهِ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " [متفق عليه] .

وجعل النبي الحب في الله أوثق عرى الإسلام .

قال رسول الله ﷺ " إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي الله وَالْبُغْضُ فِي الله " [رواه أحمد وابن أبى شيبة والبيهقى] .

بل أكثر من هذا لقد جعل النبي أن الحب في الله أفضل الأعمال .

قال الرسول اللّه ﷺ " أفضَلُ الأعمالِ الحُبُّ في اللهِ، والبُغْضُ في اللهِ " [رواه أحمد وأبو داود]

" قيل كيف يكون الحب في اللّه والبغض فيه أفضل من نحو الصلاة والصوم والجهاد ؟ قلنا من أحب في اللّه يحب أنبياءه وأولياءه ومن شرط محبته إياهم أن يقفوا أثرهم ويطيع أمرهم، وكذا من أبغض في اللّه أبغض أعداءه، وبذل جهده في مجاهدتهم بالبنان واللسان " (١)

ووعد النبي المتحابون في الله بالجنة .

قال رسول اللّه ﷺ : "مَنْ عادَ مَرِيضاً، أوْ زَارَ أخاً لَهُ في اللَّهِ تَعالى، نادَاهُ مُنادٍ بأنْ طِبْتَ وَطابَ مَمْشاكَ، وَتَبَوَّأتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنزِلاً "

[رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه وصححه ابن حبان]

---

(١) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٣٦

وعن أنس بن مالك: أَنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ قَالَ وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْنَا وَنَحْنُ كَذَلِكَ قَالَ نَعَمْ فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا " [متفق عليه] .

إن المتحابين في الله وعدهم النبي بأسمى من الجنة لقد وعدهم بحب الله لهم .

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، عَنِ النّبِي ﷺ "أَنّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَىَ. فَأَرْصَدَ اللّهُ لَهُ، عَلَىَ مَدْرَجَتِهِ، مَلَكاً. فلما أَتَىَ عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخاً لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبّهَا؟ قَالَ: لاَ. غَيْرَ أَنّى أَحْبَبْتُهُ فِي اللّهِ عَزّ وَجَلّ. قَالَ: فَإِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكَ، بِأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَبّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ " [رواه مسلم] .

ولقد شاع بين الناس حب أهل الفساد والفجور من فَسَقَة أهل الفن الهابط وبغض أهل التقوى والصلاح من المؤمنين ، ومن أحب شخصاً تعلق قلبه به ومن تعلق به قلبه لم يعد يذكر غيره ، ومن لم يعد يذكر غيره يُحَبب إليه فعله وقوله حتى ملبسه حتى يصير نسخة منه واستحق أن يحشر معه وصدق رسول الله حين يقول : " الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ " [متفق عليه]

حب الوالدين وذوى الأرحام

إن صلة الأرحام من موجبات الشرع الحكيم وقطعها من أكبر الذنوب والمعاصي حتى وإن كان ذو الرحم كافراً .

يقول تعالى : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان : ١٥] .

تأمل معي ، أخي الحبيب ، هذه الآية العجيبة التي تأمر بوجوب صلة الوالدين وإن كانا كافرين بل وإن حَرِصَا كل الحرص على أن تكفر بالله فلا تقبل منهما ذلك، ومع هذا يجب أن تكون بارًا بهما محسناً إليهما غير قاطع لرحمهما .

أين ذلك مما نسمع ونرى كل يوم من عقوق الأبناء لوالديهم والإساءة إليهما وربما امتدت أيدي بعض الأبناء الآثمة عليهما بالضرب أو القتل!!

إن الوالدين رغم أنهما يضحيان بالعزيز والغالي في سبيل أبنائهما إلا إنه لا سلطان لهما على أولادهما صغاراً ولا يجنيان منهم إلا الجحود والعقوق كباراً ولا يكاد يمر يوم حتى نسمع جريمة شنعاء في حق الوالدين أحدهما أو كليهما فعندما يكبر الأبوان يصيران عبئاً ثقيلاً على أولادهما الذين يتنصلون منهما وكل واحد من الأبناء يلقى بتبعة أبويه على الآخر ويتذرع بألف حجة للتنصل من رعايتهما ! وينتهي الأمر بإيداع الوالدين إحدى دور المسنين ليظلا بقية حياتهما في تعاسة يحتسيان كئوس الوحدة والشقاء والمرض !

مع أن الله تعالى نص في كتابه العزيز على وجوب رعاية الوالدين حتى الرمق الأخير وألا يتركهم الأولاد يعيشون في غير كنفهم فيقول تعالى :

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء : ٢٣]

فيصرح القرآن الكريم بأن الوالدين يجب أن يبلغا الكبر عند أولادهما لا في دور المسنين { يبلغان عندك الكبر } وعلى الأولاد ألا يُسْمِعوا أبويهما ما يغضبهما حتى ولو كلمة بسيطة فيها تضجر مثل : ﴿أف﴾ بل على الأولاد أن يحيطوا والديهم بالحب والحنان والرحمة وأن يذل نفسه ليعز والديه ويدعو الله دائماً لهما بالمغفرة أحياء وأمواتاً .

وحذرنا الله تعالى من قطع الأرحام فقال : ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الذي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

أي اتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها .

يقول الإمام القرطبي : " اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة. وقد صح أن النبي ﷺ قال لأسماء وقد سألته أ أصل أمي ؟ (نعمْ، صِلِي أمَّكِ) فأمرها بصلتها وهى كافرة. فلتأكيدها دخل الفضل في صلة الكافر " (١)

ولقد جعل الله تعالى في صلة الرحم بركة في الرزق والعمر .

يقول النبي ﷺ : " قَالَ تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ "

[صحيح أحمد والترمذي]

" منسأة في الأثر " أي أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت " (٢)

وكثيرة تلك الأحاديث التي تحث على صلة الأرحام منها " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ، أَو يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ " [متفق عليه]

---

(١) الإمام القرطبي في تفسيره ج ٥ ص ٦

(٢) ابن حجر العسقلانى " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ج٦ص٢٠٦

الفرق بين الواصل والمكافئ

بعض الناس يعامل أقاربه كما يعامل غيرهم من الناس إن سألوا عنه يسأل عنهم وإن ودُّوه ودهم ، وإن أساءوا إليه أساء إليهم . ويعلمنا النبي ﷺ الفرق بين الواصل للرحم والمكافئ أي المجازى لأقاربه إن صلة فصلة، وإن قطعاً فقطع .

يقول النبي ﷺ : " ليسَ الواصلُ بالمُكافئِ ولكنَّ الواصِلَ الَّذي إذا انقطعَتْ رحمُهُ وصلَهَا " [رواه البخاري] .

وعن عكرمة قال: قال عمر بن الخطاب: ليس الوصل أن تصل من وصلك، ذلك القصاص، ولكن الوصل أن تصل من قطعك "

وهذا من باب الحث على مكارم الأخلاق كقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِي أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون : ٩٦] .

ومنه ما جاء في الحديث الصحيح " صل من قطعك وأحسن إلى من أساء إليك وقل الحق ولو على نفسك ".

وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من استحل قطيعة الرحم فعادى أهله وألد في خصامهم فيقول النبي ﷺ : " لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ " أي قاطع رحم [رواه مسلم] .

عن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ :

" إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى إذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ ، فَقَالَتْ : هَذَا مُقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعةِ ، قَالَ : نَعَمْ ، أمَا تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى ، قَالَ : فَذَلِكَ لَكِ ، ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ : " اقْرءوا إنْ شِئْتمْ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا

فِـي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَـامَكُمْ أُولَئِـكَ الَّـذِينَ لَعَـنَهُمُ اللهُ فَأَصَـمَّهُمْ وَأَعْمَـى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد:٢٢ – ٢٣] [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] .

وأن رجلاً قال: يا رسول الله! إنّ لِي قَرابةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُوني ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ ، وَأَحْلَمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : " لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذلِكَ " [رواه مسلم] .

ويـشرح الإمـام مـسلم هـذا الحـديث فيقـول : (ويجهلـون علـي) أي يسيئون والجهل – هنا – القبيح من القول وهو تشبيه لما يلحقه من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم. (تسفهم المل) المل هو الرماد الحار. أي كأنما تطعمهموه. (ظهير) الظهير المعين والدافع .

أنواع الرحم

الرحم نوعان : رحم قرابة وولادة ، ورحم إيمان وإسلام .

ورحم القرابـة نوعـان : رحـم يـرث ، ورحـم لا يـرث ، ورحـم تجـب نفقتـه بالحكم كالأصول والفروع ، ورحم لا تجب نفقته بالحكم كالحواشي بل بالصلة والإحسان . والصلة تكون بالمال وتكون بالزيارة والإحسان وبالصفح في الأقوال وبالعون في الأفعال وبالألفة بالمحبة والاجتماع وغير ذلك من معاني التواصل هذا في الدنيا وأما فيما بعد الموت فبالاستغفار لهم والدعاء ونحو ذلك ومن الصلة للرحمين تعليمهم ما يجهلون وتنبيههم على ما ينفعهم ويضرهم . (١)

وأمر الله تعالى بإيتاء ذي القربى لقرب رحمه ؛ وجعل تعالى خير الصدقة ما كانت على القريب ؛ لأن فيها صلة الرحم .

---

(١) الإمام المناوى " فيض القدير " الجزء الثاني حرف الهمزة .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٨] .

حب الوطن

وحب الوطن فطرة مغروسة في الإنسان ، فالإنسان يحن إلى مسقط رأسه ، وإلى البلد الذي وجد فيه راحته لذا فقد كان النبي ﷺ عندما يقترب من المدينة المنورة يسرع بدابته تشوقاً لها وحنياً .

فعن عبد اللّه بن الحمراء الزهري، أنه سمع رسول اللّه ﷺ وهو واقف بالحرورة بسوق مكة يقول: "واللّه إنك لخير أرض اللّه وأحب أرض الله إلى اللّه، ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت"

[رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة]

أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها .

وما أحسن ما قال بعضهم :

بلاد ألفناها على كل حالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

ونستعذب الأرض التي لا هوا بها ولا ماؤها عذب ولكنها وطن . (١)

ولله در مصطفي صادق الرافعي إذ يقول :

و لا خير فيمن لا يحب بلاده ولا في حليف الحب إن لم يتيم
ومن تؤوه دار فيجحد فضلها يكن حيواناً فوقه كل أعجم
أ لم تر أن الطير إن جاء عشه فآواه في أكنافه يترنم
ومن يظلم الأوطان أو ينسى فضلها تجئه فنون الحادثات بأظلم
و ما يرفع الأوطان إلا رجالها وهل يرقى الناس إلا بسلم

---

(١) شهاب الدين الأبشيهى " المستظرف في كل فن مستظرف " ٢/ ٩٣.

وعن الأصمعي قال : قالت الهند – أهل الهند – ثلاث خصال في ثلاث أصناف من الحيوان: الإبل تحن إلى أوطانها وإن كان عهدها بعيداً، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدباً، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعاً ، وفيها أيضاً عن الأصمعي سمعت إعرابيّاً يقول إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى إخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه . (١)

ولقد ابتلانا الله بداء عضال وهو كره بعض الناس البلاد والأوطان فلا تكاد تجلس في مجلس إلا انهال بعض الجالسين على مصر طعناً وتجريحاً ، وعلى حكامها باللعنات تصريحاً وتلميحاً ، وإذا ما كُلِّف أحدهم بعمل لا يكاد يقوم به ويلقى اللوم على الحكومة ويحملها كل مسئولية ويعفي نفسه من أية مسئولية ، وأقصى أمانيه السفر وترك البلاد إلى أي مكان ، ونسى هؤلاء أن البلاد لا تكون جميلة إلا بأهلها ، ولا تتقدم إلا برجالها وأن الحكومة إن كانت فاسدة فالمجتمع يكون أفسد ، وصدق القائل إذا أردت أن يحكمك أبو بكر فكن أنت عمر وهم ليسوا عمر ولا أدنى من أي صحابي ومع ذلك يتعجبون لماذا لا يحكمهم أبو بكر أو عمر ! (٢)

سألَ أَحَدُهم عليًّا " لِماذا لَم يشغب أحدٌ على مَنْ قبلك؟ " فأجابهُ : " لأنَّهم كانوا يَحْكُمون أمثالي، وأنا أَحْكُم أمثالَك " ؛ أيْ: كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم ؛ فبهت الذي سأل .

لقد فشا في كثير منا الإهمال والسلبية والتواكل وأكل مال الناس بالباطل ، والفوضى والرياء وحب النفس والأنانية ومع ذلك ينتظرون من

---

(١) الإمام العجلونى " كشف الخفاء " باب " حب الوطن قتَّال " .

(٢) كان هذا حال كثير من الناس قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير ، ولكن الثورة أثبتت أن هؤلاء الناس لم يكونوا يكرهون أوطانهم بل يكرهون حكامهم .

الحكومة أن تحقق لهم أحلامهم دون بذل أي جهد لمساعدتها فعلى الحكومة أن تجد وظيفة لكل خريج على أن تكون هذه الوظيفة قريبة من محل إقامته ولا تحتاج إلى جهد كبير وبمرتب كبير جداً !! فإذا وفرت له الدولة فرص عمل في مناطق بعيدة مثل توشكى أو سيناء فضَّل البطالة على العمل، وفضِّل سب الحكومة على مساعدتها ! ونقول لمثل هؤلاء : وعلى فرض أن الحكومة فاسدة فكن أنت مصلحاً. فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ولن يعفيك فساد غيرك من الحساب على فسادك فعلى الإنسان ألا يقلد إلا في الخير والبر حتى لا يكون إمعة .

يقول النبي :" (لا تَكونوا إِمَّعَةً تقُولونَ إنْ أحسَنَ النَّاسُ أحسنا وإنْ ظَلَموا ظَلَمنا ولكنْ وطِّنُوا أنفُسكُم إنْ أحسَنَ النَّاسُ أن تُحسنُوا وإنْ أسَاءوا فلا تَظلِموا " [رواه الترمذي والطبراني] .

وقال ﷺ : "إِذَا قالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أهْلَكُهُمْ " [متفق عليه]

أي أشدُّهم هلاكاً لأنه قال: ذلك على سبيل الإزراء عليهم والاحتقار لهم وتفضيل نفسه عليهم ، لأنه لا يدرى سرّ اللّه تعالى في خلقه، هكذا كان بعضُ علمائنا وقال الخطابي : معناه : لا يزالُ يعيبُ الناسَ ويذكرُ مساويهم ويقول : فسدَ النَّاسُ وهلكوا ونحو ذلك ، فإذا فعل ذلك فهو أهلكُهم : أي أسوأ حالاً فيما يَلحقُه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم ، وربما أدّاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أن له فضلاً عليهم، وأنه خير منهم فيهلك . (١)

وهناك رواية أخرى للحديث " فهو أهلَكَهُم " بفتح الكاف أي هو السبب في هلاكهم بتقصيره في أداء ما هو مكلف به من العمل الجاد المثمر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة .

***

(١) الأمام النووي " الأذكار " باب حفظ اللسان .

القلب محل الرحمة

الله تعالى هو مصدر الرحمة

والقلب محل الرحمة ، والرحمة من خصائص هذا الدين العظيم أنه جاء رحمة للعالمين ، رحمة تشمل جميع الكائنات تشمل السموات والأرض وما بينهما من إنس وجن وحيوان وطير ونبات وجماد ، رحمة ليست لجنس منها فقط وليست محدودة بوقت معين إنما رحمة لجميع المخلوقات كلها إلى يوم الدين !!

ولما العجب فإن مصدر هذه الرحمة هو الله الرحمن الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة .

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢] .

النبي رحمة الله تعالى للعالمين

ولقد أرسل الله الرحمن الرحيم رب العالمين رسوله الكريم رحمة للعالمين .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

فرسل الله خلقوا للرحمة ، ومحمد ﷺ خلق بنفسه رحمة ، فلذلك صار أماناً للخلق من العذاب إلى نفخة الصور .

﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

وجعل الله تعالى الإسلام والقرآن رحمة للعالمين فعن ابن أنه قال في قوله الله تعالى :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨]

قال : أي بالقرآن وبالإسلام فليفرحوا .

ولقد أخبر الله تعالى بأن من صفات سيدنا محمد الرأفة والرحمة بالمؤمنين .

﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨]

والرحمة ليست خاصة بالمؤمن فقط ، وإنما تشمل حتى الكفار أيضاً .
قال النبي ﷺ على باب الكعبة ثم قال : " مَا تَرَوْنَ أَنِّى صَانِعٌ بِكُمْ؟ ". قَالُوا : خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ : " اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ " .. (١)
بل واتسعت الرحمة في الإسلام لتشمل الأعداء أيضاً .

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

أي قاتلوا في سبيل اللّه ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي ن المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة .

عن بريدة أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : " اغزوا في سبيل اللّه ، قاتلوا من كفر باللّه ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوليد ، ولا أصحاب الصوامع ". [واه مسلم] .

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري بشرح صحيح البخاري" ج ٨ ص ١٨ .

بل والأعجب أن النبي جعل مجرد نطق الكافر المقاتل بالشهادة فإن ذلك يجعله معصوم الدم وإن كان يقول ذلك تعوذاً من المسلم .

فعن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ قَالَ : " بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ قَالَ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ قَالَ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ رَجُلا مِنْهُمْ قَالَ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ قَالَ فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ قَالَ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فَقَالَ لِي يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا قَالَ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ." [مُتَّفَقٌ عَلَيْه]

وفي رواية : فقال رَسُول اللَّهِ ﷺ : " أقال لا إله إلا اللَّه وقتلته ؟ " قلت : يا رَسُول اللَّهِ إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: " أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟! " [تفق عليه] .

قوله " متعوذاً " : أي معتصماً بها من القتل لا معتقداً لها " (١)

وعن أبى معبد المقداد بن الأسود قال قلت لرَسُول اللَّهِ ﷺ : أرَأَيْتَ إنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الكُفَّارِ فاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إحْدَى يَدَيَّ بالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أسْلَمْتُ لِلَّهِ، أأَقْتُلُهُ يا رَسولَ اللَّهِ بَعْدَ أنْ قالَهَا؟ فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ : لا تَقْتُلْهُ فَقَالَ: يا رَسولَ اللَّهِ إنَّه قَطَعَ إحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذلكَ بَعْدَ ما قَطَعَهَا؟ فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ : لا تَقْتُلْهُ، فإنْ قَتَلْتَهُ فإنَّه بمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أنْ تَقْتُلَهُ، وإنَّكَ بمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتي قَالَ"
[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]

---

(١) الإمام النووي " رياض الصالحين " ص ٢٥٠

فأية رحمة تلك التي تصون دماء الأعداء ؟! وأي رجل هذا الذي ينهى عن قتل أطفال الكفار المعتدين ونسائهم وشيوخهم وقطع شجرهم ؟! وأي دين هذا الذي جاء رحمة للعاملين ؟! إنها رحمة الله تعالى الرحمن الرحيم بخلقه أرسل بها محمداً ﷺ الرءوف الرحيم ، إنه دين الإسلام .

ولم تقتصر الرحمة في الإسلام على البشر : مؤمنهم ، وكافرهم إنما سمت وارتقت لتشمل الحيوان والنبات أيضا وشملت ، ويا للعجب ، الجماد ولما العجب فكل ما في الكون يسبح بحمد الله وإن كنا لا نفقه تسبيحه .

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾
[الإسراء : ٤٤]

لذا كان الرسول الرءوف الرحيم يحب جميع خلق الله ، وبادلته المخلوقات حبا بحب !! ألم يقل النبي عن جبل أُحُد : " هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ " [متفق عليه]

قال على : خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض شعاب مكَّة فما مرَّ بحجر ولا شجر، ولا مدر، إلا قال: السَّلام عليك يا رسول الله " (١)

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال :

" كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ "

[رواه البخاري]

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ٦ ص ٣٢٢ .

ومن رحمته ﷺ نهيه عن اتخاذ الناس دوابهم كراسي لأحاديثهم .

أَنَّهُ ﷺ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وُقُوفٌ عَلَى دَوَابَّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ فَقَالَ لَهُمُ: ارْكَبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً وَلاَ تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لأَحَادِيثِكُمْ فِى الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ، فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ . " [صحيح أحمد]

ولقد أخبر النبي ﷺ أن تعذيب الإنسان للحيوان يسلكه النار .

عن ابن عمر رَضِى اللَّهُ عَنْهُما أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال : " عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْها حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا ، إِذْ حَبَسَتْهَا ، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ "

[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]

بل أخبر النبي ﷺ بأن من يقطع شجرة نافعة للناس أو للبهائم فإن الله تعالى معذبه بقطعها . قال رَسُولُ الله ﷺ : "مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوّبَ الله رَأْسَهُ في النّارِ" [صحيح أبي داود والبيهقى] .

سُئِلَ أَبُو دَاوُدَ عنْ مَعْنَى هَذَا الحدِيثِ فقالَ: "هَذَا الحدِيثُ مُخْتَصَرٌ، يَعْنى مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً في فَلاَةٍ يَسْتَظِلّ بِها ابنُ السّبِيلِ وَالْبهَائِمُ عَبَثاً وَظُلْماً بِغَيْرِ حَقَ يَكُونُ لَهُ فيهَا صَوّبَ الله رَأْسَهُ في النّارِ".

كما أخبر ﷺ أن إحسان الإنسان للحيوان يرفع أجره ويهديه إلى الجنة.

وعن رسول اللّه ﷺ أنه قال : " بَيْنا رَجُلٌ يَمْشِي، فاشْتَدَّ عليه العَطَشُ، فَنَزَلَ بئْرًا، فَشَرِبَ مِنْها، ثُمَّ خَرَجَ فإذا هو بكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فقالَ: لقَدْ بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أمْسَكَهُ بفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ له، فَغَفَرَ له، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، وإنَّ لنا في البَهائِمِ أجْرًا؟ قالَ: في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ" [متفق عليه]

ووصلت الرحمة بالنبي ﷺ أن يعلمنا أن نحسن ذبح ما نذبح من حيوان أو طير لنطعمه فنحد السكين ونُرِح الذبيحة .

عن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: " إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإحْسَانَ علَى كُلِّ شيءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذَا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ. " [رواه مسلم وأصحاب السنن] .

كيف يقال بعد ذلك أن الإسلام دين الإرهاب والقسوة والغلظة إن الإسلام دين الرحمة ومن قال بخلاف ذلك من المسلمين أو غيرهم فإنه يتحدث عن دين آخر غير الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله الرحمة المهداة والنعمة المسداة .

كيفية تغيير المنكر

وللأسف أنه شاع بين العالمين اليوم أن الإسلام دين الإرهاب وأن كلمة الإرهابيين مرادفة لكلمة مسلمين ويرجع ذلك لأمرين هما :

أولا : فهم بعض المسلمين الخاطئ للإسلام وأنه يجب استخدام القوة مع المخالفين لهم في الرأي من المسلمين وغيرهم وأن تغيير المنكر باليد على أية حالة هو أسمى درجات الإيمان . وهذا فهم منكر مردود على صاحبه وهاك الحديث الذين يحتج به المتطرفون ليبرروا أعمالهم التخريبية وأفعالهم الآثمة .

روى الأئمة عن أبى سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ " [رواه مسلم]

والحديث حجة على هؤلاء المتطرفين وإليك بيان المقصود بالحديث الشريف "من رأى" معناه وجوب التثبت من حقيقة المراد تغيره وعدم أخذ

الناس بالظن واتهامهم بغير دليل مصداقاً لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦]

لذا استخدم النبي ﷺ الفعل " رأى " الذي يدل على تمام اليقين ولم يقل سمع أو قيل له أو ظن ، وكثير من أولئك المتطرفين لا يتحرون الدقة فيما يقومون به من عنف وإرهاب فقد حاول رجل – يعمل سمَّاكاً – أن يقتل الروائي نجيب محفوظ ولما سئل لماذا أردت قتله ؟

-قال لأنه كافر وكتاباته كلها كفر .

- وهل قرأت لنجيب محفوظ ما جعلك تحكم بكفره ؟

-لا .. لم أقرأ !!

وأُكْتُشِف أنه جاهل لا يقرأ وإنما أفتى له أمير الجماعة بقتل محفوظ لأنه كافر فقام هو بتنفيذ الحكم دون تثبت من التهمة !! والذين قتلوا السياح الأجانب في الأقصر عام ٩٧ ، والمواطنين المسيحيين قيل لهم – دون بينة – إنهم كفار مستباحو الدم والمال فقاموا بتنفيذ جرائمهم المنكرة !!

إذن لا بد من التيقن بالدليل القاطع من وقوع المنكر ، ومواجهة صاحب المنكر بتهمته وبيان وجه الحق له – بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن – فربما كان جاهلاً بحقيقة الشرع وأن ما عمله كان عن جهل وليس عن قصد .

نأتي الآن لبيان المقصود بكلمة " منكر " التي وردت في الحديث المنكر هو ما أنكره الشرع بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة وأجمع العلماء على حرمته فإن كان النص ظني الثبوت والدلالة ومما اختلف العلماء فيه فلا يعد منكراً إن صح عن بعض العلماء إباحته وكما يقول

العلماء " إنما ينكر المتفق عليه ولا ينكر المختلف فيه " ، ففي اختلاف العلماء رحمة لكن المتطرفين يفهمون المنكر على غير هذا ، فالمنكر عندهم هو ما يراه هو منكراً ، وإن خالف رأيه رأى العلماء – أو بعضهم – كتحريمهم حلق اللحية وفرضية النقاب ...

نأتي إلى قوله ﷺ " فليغيره بيده " يظن المتطرفون أن التغير باليد حق لكل إنسان ومقياس قوة الإيمان فعلى قدر إيمانك يكون تغيرك للمنكر فإن كان إيمانك كبير ، أمثالهم !! فعليك أن تغير ما تراه منكرا بالقوة و إلا كنت ضعيف الإيمان وبهذا الفهم المغلوط راحوا يسفكون دماء الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين !! مع أن المطالب بتغير المنكر باليد – بعد التحقق من كونه منكراً شرعاً وإقامة الدليل عليه ومراجعة صاحبه واستتابته – هم أولياء الأمور وليس العامة بل وليس علماء الدين أيضاً وإلا عمت الفوضى وانتشر الفساد وكثرت الفتن كما حدث فيما خلا من سنوات لا أعادها الله علينا ثانية .

فإن كان الإنسان الذي رأى المنكر من غير أولى الأمر فليس من حقه تغير المنكر بالقوة إنما عليه تبليغ أولى الأمر بما رأى ليأخذوا تدابيرهم فإن تقاعسوا عن أداء واجبهم فهم المسئولون أمام الله يوم القيامة ، فإن استطاع أن يقدم لمن ارتكب المنكر نصيحة تبين له خطأ ما يفعل فعل ، وإلا فعليه أن يستنكر هذا المنكر ويبرأ لله منه .

ولنضرب لذلك مثالاً لتوضيح الأمر .

إذا رأى رجل ابنته البالغ تلبس ما يكشف عورتها أو يجسمها أو يشف عنها فإن عليه والحالة هذه أن يمنعها بالقوة (١) من الخروج على الناس

---

(١) بعدما يكون قد استنفد جهده في تربيتها على شرع الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

بهذه الملابس الفاضحة فهو والحالة هذه ولى أمرها ، فإذا جاءت صديقة ابنته وكانت ترتدى نفس الملابس فإن عليه أن ينصحها بالحكمة والموعظة الحسنة إذ ليس له عليها سلطان ، فإن خرج إلى الطريق ورأى فتاة ترتدى نفس الملابس الفاضحة غض بصره واستنكر بقلبه ما رأى .

فالإنسان قد يكون في موقف مغيراً للمنكر بالقوة وموقف آخر باللسان وثالث بالقلب .

ونأتي إلى معرفة المقصود بـ" أضعف الإيمان " المذكورة في الحديث فإن معناها أقل درجات التغيير وليس معناها أن من يغير بقلبه ضعيف الإيمان – إن كان لا يملك سلطة التغيير باليد أو اللسان – فضعف الإيمان معناه أقل ثمرة كما قال العلماء " (أضعف الإيمان) أضعف أعمال الإيمان المتعلقة بإنكار المنكر في ذاته لا بالنظر إلى غير المستطيع فإنه بالنظر إليه هو تمام الوسع والطاقة وليس عليه غيره"(١)

ونأتي بعد هذا البيان إلى رأى علماء الدين في شرح الحديث يقول الإمام القرطبي: " قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء ، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء ، يعنى عوام الناس " (٢)

ويقول القاضي عياض : في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : " يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى ، ويغلظ على المتمادي في غيه والمسرف في بطالته إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكرا أشد ما غيره ، لكون جانبه محميا عن سطوة الظالم ، فإن

(١) الإمام السندى " حاشية السندى على النسائى " ج ٨ ص ١١١

(٢) تفسير القرطبي ج٤ ص ٤٩ .

غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف ، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة ، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى، وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره ، أو يقتصر على تغييره بقلبه، هذا هو فقه المسألة وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين، خلافا لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال وإن قتل ونيل منه كل أذى " (١)

تقليد المسلمين أعداءهم

ومن الأمور التي ابتليت بها أمة الإسلام وأصبحت وصمة عار في جبين المسلمين قتل ، وخطف المدنيين بدعوى أن هذا جهاد وأنه سيجبر المحتلين على الجلاء - والعجيب أنهم لم يكتفوا بخطف الأجانب فقط فراحوا يقتلون ويخطفون المسلمين أيضاً ! - مما كان له أسوأ الأثر على تشويه صورة الإسلام والمسلمين أمام العالمين ، والمدهش أنك ما إن تنتقد هذا المسلك المشين الخارج على تعاليم الإسلام حتى ينفجر فيك الناس بمقارنة هذه الأعمال وما يقوم به أعداء المسلمين الذين يرتكبون أبشع الجرائم ضد الأبرياء والمستضعفين ، ونسى هؤلاء أن الإسلام لا ينتصر بتخلي المسلمين عن مبادئه والتمسك بأخلاق أعدائه ، إنما ينتصر بالتحلي بمبادئه ، والتخلي عن المشين من أخلاق أعدائه ، وما انتصر المسلمون الأوائل إلا بقيم الإسلام التي لا تجيز قتل الأبرياء غير المحاربين من أطفال ، ونساء ، وشيوخ، ورهبان ..

---

(١) الإمام النووي " صحيح مسلم بشرح النووي " ج ٢ ص ٢٥

يذكر المؤرخون المسلمون أن الخليفة الأول أبا بكر الصديق في المعارك الكبرى التي دارت بين المسلمين والإمبراطوريتين العتيدتين فارس والروم– أرسل إليه رأس أحد قادة الأعداء من قلب المعركة إلى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، وكان القائد يظن أن الخليفة يُسَرُّ بذلك، ولكن الخليفة غضب لهذه الفعلة لما فيها من المُثلة، والمساس بكرامة الإنسان، فقالوا له: إنهم يفعلون ذلك برجالنا. فقال الخليفة في استنكار: آستناناً بفارس والروم؟ لا يُحمل إليَّ رأس بعد اليوم! (١)

ولو أننا عملنا ما يعمل أعداؤنا لصرنا مثلهم وهذا ما يتمنونه ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء﴾ [النساء : ٨٩] .

هذا على المستوى الديني أما على المستوى السياسي فإن هذه الأعمال أضرت بالقضية العادلة التي ندافع عنها فقد حولت الصراع من مقاومة مشروعة لمحتل غاصب ، إلى حرب قوى خيرة (٢) ضد إرهاب حاقد !

الأمر الآخر الذي سبب اتهام الإسلام بالإرهاب هو ترويج أعداء الإسلام لهذه التهمة حتى يجدوا مسوغاً لاحتلال بلاد الإسلام والقضاء على الإسلام نفسه ليقفوا في وجه أفواج الداخلين في الإسلام – رغم سوء حال المسلمين وتقصير دعاة الإسلام – بعدما طحنتهم ماديات الحياة وبعدما فشل ما يدينون به من أديان سماوية محرفة أو عقائد إنسانية مضللة في إنقاذهم مما هم فيه من ضياع .

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر واهتزاز مكانة أمريكا عالميّاً راحت تلصق تهمة الإرهاب بالمسلمين وخاصة تنظيم القاعدة وعلى

---

(١) د. يوسف القرضاوي " موقع القرضاوي " بتاريخ ٢٧-١٢-٢٠١٠ .

(2) صرح أحد وزراء خارجية العرب بأن : أمريكا قوة خير للعالم !

رأسهم أسامة بن لادن، وحركة طالبان وجعلت ذلك مسوغاً لاحتلال أفغانستان وتدميرها ، كما لم تجد أسلحة التدمير الشامل التي غزت العراق لاتهامه بحيازتها لها !!

وهكذا فإن الإسلام واقع بين المطرقة والسندان واقع بين تخلف أبنائه وكيد وأعدائه .

***

أمراض القلوب

لم يكن التواكل والسلبية ، وسوء الظن واتهام الآخرين بلا دليل والنقد الهدَّام هي الصفات التي وَسَمَت الشعوب العربية فحسب بل لقد تفشَّت فيهم كل أمراض القلوب كالنفاق ، والرياء ، والكبر ، والحقد ، والحسد ، والغرور ، وحب الرياسة والجاه ، وحب المال .. وأمراض القلوب كثيرة وخطيرة وهي أشد فتكاً من أمراض الأبدان على الإنسان فأمراض الأبدان قد تورث توبة وإنابة إنما أمراض القلوب تورث الكفر والنفاق.

يقول الشيخ محمد الغزالي : " معاصي القلوب أخطر من معاص الجوارح وأخشى أن يكون ما ينتشر بيننا وبين غيرنا من عوج خاضع لهذا القانون ! لقد تذكرت حرب ١٩٦٧م التي خسر العرب فيها القدس وسيناء والجولان والضفة الغربية في حرب لم تدم إلا بضع ساعات ؟ .. ولو أن الذي قاد هذه الحرب أحد الخواجات لآثر أن يطلق على دماغه الرصاص واستحى أن يقابل أمته بهذا العار . لكن قائد الهزيمة عندنا عاد إلى قواعده سالماً ليكافئ من يقول له الحمد لله على سلامتك وليطارد من يقول له : كيف ألحقت بنا هذه الفضيحة . إن أوروبا لا تقبل أن يشيع فيها الانحراف الحيواني لا تقبل ولا يمكن أن تقبل أن يقع فيها هذا الانحراف الإنساني ، هذا هو الفرق بين الرذيلة عندنا وعندهم .. إن الكبر والحسد والافتخار بالنفس أو النسب أو المال ، وحب الخلاف وحب الظهور وحب السمعة ، والرغبة في التسلط والرغبة في هضم أولي الكفاية ، إن هذه الرذائل أشنع من ترك العنان للغريزة الجنسية تنطلق على النحو السيئ الموجود في ظل المدنية الحديثة ومن

هنا فإن خصومنا لن يضارون كثيرا أو على عجل من عللهم كما نضار نحن المسلمين من آفات الرياء والكبرياء المبعثرة في كل ناحية . إن الإسلام – بداهة – عافية سابغة من أنواع العلل التي تستهلك النفوس ، والمجتمعات وهو يحارب صنوف المعاصي ويحصن أبناءه ضدها " (١)

ومن أمراض القلوب : النفاق ، والرياء ، والكبر ، والحقد ، والحسد ، والغرور ، وحب الرياسة والجاه ، وحب المال ...

النفـاق

النفاق لغةً : إظهار الإنسان غير ما يبطن، وأصل الكلمة من النفق الذي تحفره بعض الحيوانات كالأرانب وتجعل له فتحتين أو أكثر فإذا هاجمها عدوها ليفترسها خرجت من الجهة الأخرى، وسمي المنافق بهِ لأنه يجعل لنفسهِ وجهين يظهر أحدهما حسب الموقف الذي يواجهه.

يقسِّم علماء الإسلام النفاق إلى نوعين هما:

نفاق اعتقادي: وهو النفاق الأكبر الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر. وهذا النوع مخرج من الإسلام وصاحبه مُخَلَّد في الدرك الأسفل من النار لقول القرآن : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء : ١٤٥] .

نفاق عملي: وهو النفاق الأصغر، وهو عمل شيء من أعمال المنافقين مع بقاء الإيمان في القلب، وهذا لا يُخْرِج صاحبهُ من الإسلام، وهو يكون فيه إيمان ونفاق وإذا كثر صار بسببه منافقاً خالصاً. لقول النبي ﷺ " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ

(1) الشيخ محمد الغزالي " هموم داعية " دار البشير للطباعة والنشر ص ٨١ .

مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" [متفق عليه] .

والنفاق هذا أخطر أمراض القلوب وأشدها فتكاً النفاق ويذكر الله تعالى لنا صفات المنافقين فيقول جل شأنه :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

[البقرة : ٨ –١٠]

والمنافقون مسلمون – في الظاهر – من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلساننا ويعيشون في أوطاننا لكن ولاءهم لأعداء الله والوطن ينفثون سمومهم في أجهزة الإعلام المختلفة : المسموعة والمرئية والمقروءة ، وفي الفنون المختلفة : أدب ، نحت ، رسم ، غناء ، تمثيل ، ويدَّعون أنهم مصلحون وتقدميون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون بل كثير منهم في زماننا مفسدون ويشعرون .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٢]

هؤلاء المنافقون هم الذين يستهزئون بشريعة الإسلام وبالمؤمنين فيرمونها بالرجعية ويرمون أهلها بالتخلف ، ويشككون في ثوابت الدين يشككون في العقائد كعذاب القبر ونعيمه ، ويشككون في الفرائض كفريضة الحجاب ، ويشككون في الشعائر كالذبح في عيد الأضحى ، ويتصيدون خطأ لعالم فيشنعون على كل عالم دين ، ويستغلون جهل متعالم مُدَّعٍ فيرمون به كل عالم متقٍ ... ويتاجرون في الأعراض والمنكرات فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

والعجيب عندما تناقشهم في أمور دينية يهاجمونها رغم أنها معلومة من الدين بالضرورة يقولون لك لا تزايد علينا في ديننا نحن نفهم الإسلام أكثر منك ولا نحتاج إلى من يعلمنا ديننا !!

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٤–١٦] .

هؤلاء هم العدو حقاً ولشدة خطورتهم خصهم الله تعالى بصورة كاملة ذكر فيها تعالى أهم نعوتهم ومنها .

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

[المنافقون : ٢– ٤]

هؤلاء هم السوس الذي ينخر في عقول الأمة ليفسدها ، وهم معاول هدم الفضيلة في المجتمع باسم الفن أو الأدب أو العلم ، هؤلاء المنافقون أضر على المسلمين من أعدائهم الشرقيين والغربيين ، هؤلاء بطانة السوء التي تفسد الراعي والرعية . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[آل عمران : ١١٨]

ولقد نجح هؤلاء في غيبة التدين الصحيح وحسن الدعوة إليه أن يغزوا الجامعات والإعلام والسياسة ، ووسائل الاتصال الاجتماعي ، والأعمال

المؤثرة في المجتمع ، ورغم قلة هؤلاء إلا أنهم ذوو تأثير كبير في إفساد المجتمع ومن ورائهم أعداء الله يدعمونهم ويسندون ظهورهم .

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا﴾

[النساء : ١٣٨ – ١٣٩]

هؤلاء المنافقون وراء كل دعوة لعُرْى وخلاعة ، ووراء كل إباحية وفجور، ووراء كل تثبيط للهمم وتغييب للعقول ، ووراء كل دعوة لصرف المسلمين عن شريعة الله تعالى وهدى نبيه المصطفي ﷺ وشغلهم بتوافه الأمور .

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة : ٦٧] .

هؤلاء المنافقون أحفاد عبد الله بن أبي بن سلول تجدهم وراء كل مذهب فاسد ، وكل فن داعر ، وكل فاحش بذيء . ينصرونه ويؤيدونه وإن صدر ضده حكم قضائي .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ في الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النور : ١٩] .

ومهما توارى هؤلاء المنافقون وراء المسميات المختلفة ، والمذاهب المتباينة فإن أقوالهم وأعمالهم تشف عن حقدهم وضغائنهم .

فمن هؤلاء من يرى فحش القول أدباً ، والخَنَى فناً ، والتشكيك في ثوابت الدين حرية رأي ، وإثارة الفتن إصلاحاً ، وغثاء المرضى النفسيين إبداعاً ، وأحكام القضاء في هؤلاء ظلماً ...

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٠] .

أي لتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وفي الحديث: "ما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر" (١)

وما يخفي عن المؤمنين من أعمالهم تكفل الله تعالى بكشفه لذوى البصائر .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾

[محمد : ٢٩]

أي أيعتقد المنافقون أن اللّه لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل اللّه تعالى في ذلك سورة فبين فيها فضائحهم، ولهذا كانت تسمى سورة " التوبة " الفاضحة .

فليحذر هؤلاء المنافقون من عقاب الله تعالى فإن مصيرهم أسوأ مصير أنهم أسوأ من فرعون وملئه ، ومن أبى جهل وحزبه إنهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيه أبداً .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

[النساء : ١٤٥]

فالمنافق في الدرك الأسفل ؛ لغلظ كفره ، وتمكنه من أذى المؤمنين.

---

(١) ابن كثير في تفسير قوله تعالى { ولتعرفنهم في لحن القول) .

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِي حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد : ١٣- ١٥] .

فليسارع هؤلاء بالتوبة قبل أن يأتي الموت بغتة فإن تابوا وأصلحوا فإن الله تعالى يتوب عليهم وهو التواب الرحيم .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء : ١٤٥- ١٤٦]

الريـاء

الرياء ضد الإخلاص ، والإخلاص: أن تقصد بعملك وجه الله ، أما الرياء فمشتق من الرؤية وهو أن يعمل العمل ليراه الناس ، فالمرء إذا عمل العمل لينال ثناء الناس ومدحهم أو ليظهر تميزه على أقرانه أو غيرهم فهذا هو الرياء بعينه، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] .

ومن معاصي القلوب التي أصابت أمة الإسلام الرياء ، المرائي هو من يتظاهر بالصلاح على خلاف ما عليه ليكسب ثناء الناس وشكرهم، فالمرائي وإن كان يؤدى بعض العبادات الظاهرة ويقوم ببعض أعمال

الخير فإنه لا يقصد بها وجه الله تعالى إنما يقصد بها وجه الناس أو يشرك مع الله تعالى الناس ولا ثواب للمرائي عند الله تعالى ؛ فالله جل وعلا لا يقبل إلا ما كان له خالصاً ومن الرياء سالماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالذي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

فمن عمل معروفاً رئاء الناس فقد أبطل صدقته وأفسد عمله حتى وإن كان جهاداً في سبيل الله .

أخرج أبو داود والنسائي والطبراني بسند جيد، عن أبى أمامة قال: " أنَّ رجلاً جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال : يا رسولَ اللهِ ,أرأيْتَ رجلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ والذِّكْرَ ؟ فقال رسولُ اللهِ : ﷺ " لا شَيْءَ لهُ " فَأَعادَها ثلاثَ مراتٍ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ " لا شَيْءَ لهُ " , ثُمَّ قال ﷺ : " إنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلاَّ ما كان لهُ خَالِصًا ,وابْتُغِيَ بهِ وجْهُهُ ".

ولقد ذكر النبي ﷺ أن أول من يحاسب ويسأل عن أفعاله ويدان ويسحب على وجهه ويلقى به في النار هم المراءون فمن قاتل أعداء المسلمين ، أو علَّم علماً أو قرأ القرآن أو أنفق صدقة يرجو وجه الناس والذكر فهو من أصحاب النار يصلاها مذموما مدحوراً .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي

النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ " [صحيح مسلم] .

وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء: " صُمْتُم وَصَلَّيْتُم وَتَصَدَّقْتُم وَجَاهَدْتُم وَقَرَأْتُم لِيُقَالَ ذَلِكَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ " ثم قالَ: " إِنَّ هَؤلاءِ أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّر بِهِم النَّارُ " .

فالرياء يبطل العمل ، وإن لم يتب عنه صاحبه فإنه يسلكه جهنم .

قال رسول اللّه ﷺ : " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ "

[أخرجه مسلم]

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة قال، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: " إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ في عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ " [رواه أحمد وابن ماجه والترمذي] .

ولقد سمى النبي ﷺ الرياء الشرك الخفي " الشِّرْكُ الخَفِي أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ " [صححه الحاكم] .

أي يعمل العمل من أجل رجل ليثنى عليه أو يذكر عمله هذا للناس فيعرف به.

وعَنْ أَبِى سَعيدٍ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ . فَقَالَ : أَلاَّ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِى مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟ " قَالَ ، قُلْنَ : بَلَى . فَقَالَ " الشِّرْكُ الْخَفِيُّ : أَنْ يَقُومُ الرَّجُلُ يُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ " [ابن ماجه بسند حسن] .

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من الشرك الخفي والعمل لغير وجه الله وأشفق على أمته منه .

قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِى الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أَمَا إِنِّى لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلاَ قَمَرًا وَلاَ وَثَنًا وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً" [أخرجه ابن ماجه] .

والرياء من الأمراض الخطيرة التي تدمر المجتمع فلا عمل يعمل لوجه الله تعالى وإنما للتظاهر به من أجل المصلحة الخاصة ، ولا يكاد أحد يتولى منصباً حتى تنهال عليه التهاني والهدايا ممن يعرف وممن لا يعرف رياء من أجل الاستفادة من منصبه في قضاء مصالحهم الدنيوية ، وبكثرة الرياء للرؤساء يستمرئونه ويصدقون أنفسهم أنهم عباقرة ولم تنجب الأرض أمثالهم فتأخذهم العزة بالإثم ويتكبرون على الحق فيفسدون . وإن أرادوا أن يولوا المناصب فهي من نصيب من رَاؤهم لا لذوى الكفاءات من المخلصين الذين يترفعون عن التملق والرياء .

ويعلمنا الرسول كيف نتقى الرياء أو الشرك الخفي .

عن أبى موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال : " أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ " فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : " قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ " [رواه أحمد والطبرانى] .

وقال ﷺ : " إنّ أخْوَفَ ما أخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ الرِّياءُ يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إذا جَزَى النّاسَ بأَعْمالِهِمْ اذْهَبُوا إلى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ في الدُّنْيا فانْظُروا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً " [أخرجه أحمد والبيهقى] .

الكبر

الكِبْر لُغَةً : العَظَمَة والتَّجَبُّر، كالكِبْرِياء ، والكِبْر في الاصطلاح الشرعي هو : ردُّ الحقِّ، واحتقار الخَلْق، والمُتَكَبِّر هو من يستعظم نفسه، ويستحسن ما فيه من فضائل، ويتعالى على من يجب التواضع لهم من الناس ويستصغرهم ، وهو ضد التواضع، الذي أمر الإسلام به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فالتواضع قبول الحقِّ ممن قاله، وعدم احتقار الخَلْق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه .

والكبرياء لا تكون إلا لله تعالى ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاء في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية : ٣٧] .

ومن نازع الله تعالى هذه الصفة من مخلوقاته جعل الله تعالى النار مثواه ﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

[النحل : ٢٩]

وقالَ رَسُولُ الله ﷺ قالَ الله تَعالَى: " الْكِبْرِياء رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إزَارِي، فَمَنْ نازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النّارِ" [أخرجه مسلم] .

وفي بدأ الخليقة تكبَّر إبليس اللعين على السجود لآدم إذ أمره الله تعالى فَطُرِد من الجنة وحلَّت عليه لعنة الله تعالى .

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ

إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [ص : ٧١- ٧٨] .

فالشيطان إمام كل المتكبرين وهو الداعي إلى كل كبر على الله وخلقه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] .

ولقد توعَّد الله تعالى كل مُتكبِّر بأن يصرفه عن آيات الله تعالى الدالة على قدرته ، ويعمى بصيرته عن الاهتداء إلى الحق ، ويسلكه طريق الشيطان .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾

[الأعراف : ١٤٦]

ولقد توعَّد الله تعالى المتكبرين بالنار لأنهم تكبروا على الإيمان بالله وعبادته .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٣٥]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

[غافر: ٦٠]

أما المؤمنون فإنهم لا يستكبرون على الله ولا على خَلْقِه .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة : ١٥] .

والكبر طريق الإنسان إلى النار قلَّ أو كَثُر فلن يدخل الجنة متكبر .

" لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ "

[رواه مسلم]

ونهى النبي ﷺ عن الإطراء والمدح المفرط فيه حتى لا يؤدي ذلك إلى تكبر الممدوح .

سمع النبي ﷺ رَجلاً يُثنَي على رَجُلٍ ويُطرِيهِ فَقال النبي ﷺ : " أَهلَكتُم أَو قَطَعتُم ظَهَر الرَّجُل " [رواه البخاري] .

" قَطَعتُم ظَهَر الرَّجُل " أي أثقلتموه بالإثم، لأنه ربما حمله إطراؤهم له على العجب والكبر، وسلك سبيل المتكبرين، فيقع في الإثم الكبير الذي يقطع الظهر.

وكما ابتليت أمة الإسلام بالمتملقين ابتليت كذلك بالمتكبرين ، وربما كانت كثرة المُتملقين والمنافقين سبباً في انتشار المُتَكَبِّرين والمُتَجَبِّرين فقد يكون الإنسان متواضعاً مخلصاً محباً للناس مقدراً لمواهبهم وفضائلهم فإذا ما تولَّى منصباً والتف حوله بطانة المتملقين والمنافقين وراحوا يكيلون له المدح والإطراء ويزينون له سوء عمله ويحرضونه على الناصحين المخلصين والمعارضين الوطنيين الشرفاء فينقلب من متواضع لمتكبر ومن متسامح لمتجبر ومن مصلح لمفسد ومن إنسان كان على استعداد أن يضحي بنفسه في سبيل وطنه إلى متألِّهٍ على استعداد أن يضحي بوطنه في سبيل نفسه .

والمتكبرون عامة مسئولون وغير مسئولين يتكبرون على الحق فلا يلتزمون به ولا يحتكمون إليه ، كما يتكبرون على من دونهم في الحسب

والنسب ، أو العلم والمعرفة ، أو الصحة والقوة ، أو المنصب والعمل ، أو المتاع والمال ، أو أجاه والسلطان .

يتكبَّر الإنسان بحسبه ونسبه على من لا حسب لهم ولا نسب من عامة الناس بدلاً من التواضع لهم شكراً لله على هذه النعمة التي لا فضل له فيها ؛ فالإنسان لا يختار أبويه ولا عائلته كما أن كرامة الإنسان عند الله والناس بحسن عمله لا بعراقة نسبه .

يقول علي بن أبي طالب :

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدَباً   يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
فَلَيْسَ يُغْنِي الحَسِـيبَ نَسْبَتُهُ   بِـلا لِسَـــــانٍ لَهُ وَلا أَدَبِ
إنَّ الفَتَى مَنْ يَقُــولُ هَا أَنَا ذَا   لَيْسَ الفَتَى مَنْ يقولُ كان أبي

ويتكبر الإنسان بما أعطاه الله من مال وثراء على المحتاجين والفقراء بدلاً من شكر نعمة الله بإعطاء الفقراء والمساكين حقهم الذي فرضه الله تعالى عليه فالمال مال الله وما الإنسان إلا مستخلف فيه .

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] .

﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] .

ويتكبر الإنسان بما أعطاه له من علم وما حصل عليه من شهادات وجوائز بدلاً من شكر الله على هذه النعمة بتعليم الناس ونفعهم قال رسولُ اللهِ ﷺ : إنَّ اللهَ وملائكَتَه وأهلَ السماواتِ والأرضِ حتى النملةَ في جُحرها، وحتى الحوتَ ليصلُّون على مُعلِّمِ الناسِ الخيرَ "

[صحيح الترمذي]

ويتكبر الإنسان بما أعطاه الله من صحة وقوة على المرضى والضعفاء بدلاً من شكر لله تعالى ومساعدة الآخرين عن ابن عباس

قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لرجلٍ وهو يَعِظُه : " اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ: شبابَك قبل هِرَمِك ، وصِحَّتَك قبل سِقَمِك ، وغناك قبل فقرِك ، وفراغَك قبل شُغلِك ، وحياتَك قبل موتِك " [حسنه الحافظ العراقي] .

ويتكبر الإنسان بما أعطاه من مُلْك وسُلْطة على المحكومين والمرءوسين بدلاً من شكر الله تعالى بالقيام بمهام ما ولَّاه الله فيعدلُ في القضيةِ ، ويحكمُ بالسَّويَّةِ ، ويمشي مع الرعيَّة حتى لا ينزع الله منه الملك ويذله بعد عزٍّ ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] ولا يكون كفرعون ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤ – ٢٦] أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتكبرين في الدنيا .

والله تعالى يعلم نبيه ﷺ كيف يحدِّث بنعم الله عليه فيقول له ﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

[الضحى : ٦– ١١]

فالآيات الثلاثة الأولى بيان لبعض نعم الله على النبي ﷺ فقد آواه من اليتم ، وهداه إلى الحق ، وأغناه عمن سواه ، وفي مقابل أنه آواه من اليتم أمره بوجوب العطف على اليتامى والإحسان إليهم وعدم احتقارهم ، وفي مقابل هداية الله له إلى الحق بعد حيرته في الوصول إليه أمره بأن يجيب السائلين إلى ما طلبوا بلطف وإحسان ولا يبخل عليهم بهداية أو مال ولا يزجرهم ويغضبهم ، وهكذا علَّم الله نبيه أن جزاء الإحسان

إحسان وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي وهكذا يكون دْأُبك مع نعم الله أن تشكر الله عليها وتنفق منها على خلْقِهِ ولا تبخل بها على محتاج إليها .

وليس معنى ذلك أن المُتكبِّر لا يكون إلا من فضَّله الله بنعمة على غيره فحسب بل إن هناك متكبرين ولا فضل لهم على غيرهم فالكِبْر متأصل فيهم وإن لم يكن عندهم ما يتكبرون به .

فعن أبي هريرة عنه قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : " ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ " [رواه مسلم] . " العَائِلُ " : الفَقِيرُ .

وليس من الكبر أن يكون الإنسان حسن الثياب حسن الحذاء إنما الكبر هو إنكار الحق ، واحتقار الناس .

فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قَالَ : " لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ ! " فَقَالَ رَجُلٌ : إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً ، ونَعْلُهُ حَسَنَةً ؟ قَالَ : " إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ " [رواه مسلم] .

" بَطَرُ الحَقِّ " : دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ ، و" غَمْطُ النَّاسِ " : احْتِقَارُهُمْ.

الحسد

الحسد تمنِّى زوال النعمة عن المحسود . والإنسان دائماً طمَّاع لا يرضى بما قسمه الله له إنما هو دائماً يتمنَّى المزيد وينظر إلى ما في يد الآخرين يقول تعالى ﴿وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]

لذا يحذرنا الله تعالى من تمنى زوال نعمة الله التي أنعم بها على عباده ويعلمنا أن نسأله تعالى أن يرزقنا هذه النعم دون تمنى زوالها عن أصحابها .

﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء : ٣٢] .

قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي ومجازي، فالحقيقي تمنى زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، وأما المجازى فهو الغِبْطَة وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة. والمراد بالحسد في هذا الحديث " لا حَسَدَ إلا على اثْنَتيْنِ : رجلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآنَ فقام به آناء اللَّيل وَآنَاءَ النَّهارِ ، ورجلٌ أعْطاهُ اللَّهُ مالا ، فَهوَ يُنْفِقِهُ آنَاءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ " [متفق عليه]

الحسد هنا معناه المجازى أي لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما .[١]

إن أول جريمة قتل على الأرض كانت بسبب الحسد إذ حسد قابل أخاه هابيل أنْ تقبل الله القربان من أخيه ولم يتقبله منه هو فقتله حسداً من عند نفسه .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَى يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِى إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[المائدة : ٢٧ – ٣٠]

---

(١) المباركفورى " تحفة الأحوزى " باب ما جاء في الحسد .

والحسد لن يعود على صاحبه بنفع بل يأكل حسناته .

" الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَالصَّلاَةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ " [رواه أبو داود وابن ماجه] .

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من الحسد فإنه مفسدة للدين .

أَنّ النبي ﷺ قالَ: " دَبّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِى الْحَالِقَةُ ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدّينَ، وَالذي نَفْسِى بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنّةَ حَتّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حَتّى تَحَابّوا، أَفَلاَ أُنَبّئُكُمْ بِمَا يُثَبّتُ ذَلِكَ لَكمْ: أَفْشُوا السّلاَمَ بَيْنَكُمْ " [رواه أبو داود والترمذى] ومعنى " تَحْلِقُ الدّينَ " أنها لا تُبقى شيئاً من الحسنات حتى تذهب بها .

إن الحسد مرض يصيب القلب فيمزقه ويفرى الكبد ويحرقه وعلى كل إنسان أن يتحصَّن بذكر الله وقرباته فلن يفلح معه حسد بل يُرَد كيد الحاسد إلى نحره .

وقديماً قال ابن المعتز

اصبرْ على كيدِ الحسودِ — الحسود فإن صَبْرَكَ قاتلهْ
فالنارُ تأكلُ بعضَها — إن لم تَجِدْ ما تأكلُهْ

واعلم أن دواء الحسد الذي يزيله عن القلب معرفة الحاسد أنه لا يضر بحسده المحسود في الدين ولا في الدنيا وأنه يعود وبال حسده عليه في الدارين إذ لا تزول نعمة بحسد قط ، وإلا لم تبق لله نعمة على أحد حتى نعمة الإيمان لأن الكفار يحبون زواله عن المؤمنين؛ بل المحسود يتمتع بحسنات الحاسد لأنه مظلوم من جهة، سيما إذا أطلق لسانه بالانتقاص والغيبة وهتك الستر وغيرها من أنواع الإيذاء، فيلقى الله مفلساً من الحسنات محروماً من نعمة الآخرة، كما حرم من نعمة

سلامة الصدر وسكون القلب والاطمئنان في الدنيا، فإذا تأمل العاقل هذا عرف أنه جرّ لنفسه بالحسد كل غم ونكد في الدنيا والآخرة .(١)

والحسد من الأمراض التي كثرت في الآونة الأخيرة فلا يتولى أحد منصباً إلا وقيل أنه من المحاسيب ، ولا تكاد تظهر نعمة على إنسان إلا واتهم بالرشوة والفساد ، ولا اغتنى رجل أعمال إلا وقيل أنه لص أو تاجر مخدرات ، وربما الدافع وراء هذا الحسد وإلقاء التهم من غير دليل كثرة المفاسد في المجتمع لدرجة أصبح الغنيُّ متهماً – في نظر الناس – حتى تثبت براءته .

حب الرياسة والجاه

تَرَأَّس علَى القَوْم : صَار رَئِيسًا عَلَيْهِم . أما الجَاهُ فهو : المنْزِلة والقَدْر.

حب الرياسة والجاه من الأمراض المستوطنة في مرضى القلوب ولقد ابتليت مصر ببعض الأغنياء الذين جمعوا أموالهم من تجارة المخدرات وتجارة السلاح ومن احتكار السلع وأكل أموال الناس بالباطل ، فلم يكتف هؤلاء بما جمعوا من أموال بل راحوا يزاحمون السياسيين ميدان السياسة ، وراحوا ينفقون الآلاف بل الملايين من أجل الوصول إلى عضوية مجلس النواب ، أو مجلس المحافظة ، أو المجلس المحلى ، مع أنهم ليس لهم أدنى مؤهلات سياسية حتى الاستماع إلى نشرة الأخبار وقراءة الصحف ! ويدعون – كذباً – أنهم ما رشحوا أنفسهم إلا من أجل خدمة المواطنين ولو أرادوا خدمة المواطنين حقاً لما جمعوا هذه الأموال من حرام ، لأنفقوها في نفع أبناء دائرتهم إنما هو حب الرياسة والجاه، إلى جانب الرغبة في استثمار الحصانة البرلمانية في خدمة مصالحهم الخاصة .

---

(١) الصنعانى " سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٢ .

أعلمتم لماذا تسير الأحوال من سيئ لأسوأ ؟!

قال الإمام أبو حامد الغزالي: حب الرياسة والجاه من أمراض القلوب وهو من أضر غوائل النفس وبواطن مكائدها يبتلى به العلماء والعباد فيشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات وحملوها على العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة وطلبت الاستراحة إلى إظهار العلم والعمل فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ولم تعتقد باطلاع الخالق فأحبت مدح الخلق لهم وإكرامهم وتقديمهم في المحافل فأصابت النفس بذلك أعظم اللذات وهو يظن أن حياته باللّه وبعبادته وإنما حياته الشهوة الخفية وقد أثبت اسمه عند اللّه من المنافقين وهو يظن أنه عنده من المقربين . (١)

وإن من شرع الإسلام أن طالب الولاية لا يُولَّى لأنه في الغالب ما طلبها إلا عن حب للرياسة وهوى في نفسه أما الذي يُولَّى هو ذو العلم والخبرة والصلاح والتقوى والزاهد في الوالية .

عن أبى موسى الأشعري قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحدهما : يا رَسُول اللَّهِ أَمِّرْنا على بعض ما ولاك اللّه عَزَّ وَجَلَّ ، وقال الآخر مثل ذلك فقال ﷺ : " إِنَّا وَاللَّهِ لا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ ، وَلا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

وعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ ، قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ ، لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا. " [متفق عليه]

---

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج٣ ص ٢٧٥ .

والخلفاء الراشدون ما طلبوا الولاية إنما اختارهم كبار الصحابة ثم صدَّق الناس على هذا الترشيح بحرية كاملة وإليكم قصة بيعة أبى بكر.

عن أنس قال: لما بُويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: .. إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أما بعد أيها الناس، فإنى قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني . (١)

فكبار الصحابة قد بايعوا أبا بكر في السقيفة – دون رغبة منه – ثم أعلن عمر هذا الترشيح في المسجد فصدَّق المسلمون عليه .

أما خلافة عمر فقد رشَّح أبو بكر عمرَ – دون رغبة منه – ولم يكن عمر من أهل أبى بكر إنما كان أولى الناس بالخلافة بعده وبايع الناس عمر وصدَّقوا على ترشيح أبى بكر له .

فلما طُعَن عمر جعل الخلافة في ستة نفر مات النبي ﷺ وهو عنهم راض ولم يجعل من بينهم ابنه عبد الله مع أنه لا يقل عنه تقوى وإيمان حتى لا يصير الحكم وراثيّاً ، واختار كبار الصحابة عثمان وبايعه المسلمون ، فلما قُتِل اختار المسلمون عليّاً بن أبى طالب .

وبعد على أصبح الحكم ملْكاً عضوضاً .

رُوِى عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: " الخلافةُ بعدي ثلاثونَ سَنةً ثمَّ تكونُ مُلكًا " وفي رواية " مُلْكاً عَضُوضاً " .

[أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائي]

---

(١) ابن كثير " السيرة النبوية " ج٤ ص ٤٩٣ .

" مُلْكاً عَضُوضاً " أي يُصِيبُ الرَّعيَّة فيه عسْفٌ وظُلْم، كأنَّهم يُعَضُّون فيه عَضًّا .[١]

والإسلام لا يشترط صورة بعينها لاختيار الحاكم ، المهم أن يُختار الأصلح وأن يبايعه غالبية الناس .

ولقد جعل الله تعالى الجنة لمن لا يريد علوّاً في الأرض ولا يطمع في مناصب دنيوية لتحقيق مصالح شخصية .

يقول الله تعالى تعقيبا على قصة قارون .

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] .

وروي أن النبي ﷺ قال في تفسير العلو في الأرض والفساد في هذه الآية الكريمة : "التجبر في الأرض، والآخذ بغير الحق "

[أخرجه المحاملى والديلمى]

فكم أولئك الذين تجَّبروا في الأرض وأخذوا السلطة بغير الحق من المسلمين!!

حب المال

المال في اللغة: كل ما يقتنى ويحوزه الإنسان بالفعل سواء أكان عينًا أم منفعةً، كذهب أو فضة أو حيوان أو نبات أو منافع الشيء كالركوب واللبس والسكنى.

وحب المال غريزة متأصلة في الإنسان يولد بها ويشيب عليها ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف : ٤٦] .

---

(١) ابن الأثير " النهاية في غريب الحديث " ج٣ ص ٤٩٤

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ " [رواه البخاري] .

فالإنسان من طبيعته حب المال بل الحب الشديد للمال لا يقنع منه بالقليل ولا يكتفي منه بالكثير ولا يكف عن طلبه ولا يشبع منه مهما كثر. ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر : ٢٠] .

ورَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ " لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالاً لأَحَبَّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلَهُ وَلا يَمْلأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ "

[رواه البخاري]

والمؤمن من يجاهد حب المال بالإكثار من الصدقة وبذل المال في وجوه البر حتى يكون من الأبرار .

﴿وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فالصَّدَقَة حجة ودليل قوى إلى إيمان المسلم وحبه لربه ورغبته في ثوابه فإن النفس مجبولة على حب المال، والشيطان يعد الإنسان الفقر ويزين له الشح والنفس تساعده ، فمخالفة النفس والشيطان من أقوى البراهين على حب الرحمن.(١)

قالَ رَسُولُ الله ﷺ : "الوُضُوءُ شَطْرُ الإيمانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ الله والْحَمْدُ لله تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السّمَاوَاتِ والأرْضِ، والصّلاَةُ نُورٌ، وَالصّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلّ النّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا "

[رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان]

---

(١) الإمام المناوي " فيض القدير ". ج١ ص ٦٢٠

ولقد وصف الله تعالى من يبرأ من البخل والشح ويروض نفسه على الإنفاق في سبيل الله بالفلاح .

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن : ١٦] .

والبخل مذموم في الشرع الحكيم بل مهلك صاحبه .

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء : ٣٧] .

والمال في الإسلام مال الله وما الإنسان إلا مستخلف فيه .

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد : ٧] .

ولقد توعد الله تعالى من يبخلون بمال الله على عباده بالعذاب الشديد.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

وفي تفسير قوله تعالى : " سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " روى البخاري: عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ له شُجَاعًا أقرعَ له زبيبتان، يُطَوّقُه يوم القيامة، يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه -يعني بشدقَيْه-يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنزكَ" ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ .

كما توعد الحق جل وعلا من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم وبان يحمى بما كنز في نار جهنم .

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٥]

ومن الناس من يظن أن كثرة المال نعمة وأن قلته نقمة ، والله تعالى قد بيَّن أنه يبتلى بالخير والشر فتنة ؛ فالغنَي ليس دليل رضا الله تعالى ولا صلاح العبد ، والفقر ليس دليل سخط الله تعالى ولا فساد العبد.

يقول تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر : ١٥ – ١٧] .

وإن من الناس من لا يسال الله تعالى إلا المال ويظن أن الغنى سعادة وفلاح ويعاهد الله على صرف المال في مصارفه الشرعية ، ويضرب لنا الحق جل وعلا مثالاً لهؤلاء فيقول :

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فلما آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة : ٧٥– ٧٧] .

ورغم وعيد الله تعالى للبخلاء ، وتهديده الشديد للكانزين إلا أن أغنياء المسلمين بعدما أفاض الله عليهم من نعيم ، وفجَّر آبار البترول في بلادهم أودعوا أموالهم بنوك أوربا وأمريكا ليحاربونا به بدلاً من استثمارها في البلاد العربية والإسلامية ! إن هؤلاء الأغنياء المُقتِّرين

ضعاف العقل والدين ظنوا أن الثروات الطبيعية التي مَنَّ الله عليهم بها حقاً مكتسباً ، وأنهم أوتوها على علم عندهم كما قال قارون ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وكما قال غير قارون ممن فُتِنُوا بحب المال ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر:٤٩] ونسى هؤلاء وأولئك أو تناسوا أن المال مال الله وما هم إلا أمناء عليه ، وأنه يعطيه للناس فتنة ويوم القيامة الله سيسألهم عن هذه الأمانة أدوها أم ضيعوها .

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص : ٧٦ – ٧٨] .

وكما أهلك الله تعالى قارون وكنوزه عندما بغى الفساد في الأرض وادَّعى أن علمه وجهده وحدهما هما سبب ما فيه من نعيم ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١] أهلك الله تعالى أموال هؤلاء المسلمين الكانزين المترفين فاستولى عليها أعداؤهم وأعداء الإسلام وغزو بها بلادهم وبلاد الإسلام ، وساموهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم

ويستحيون نساءهم وفي ذلك بلاء من ربك عظيم، لعلهم يرجعون إلى الله ، وبدلاً من صرف هذه الأموال على موائد القمار وعلى الراقصات ، والفاجرات يستثمرونها في البلاد العربية ويغنون فقراء المسلمين عن السؤال ومد يدهم لأعدائهم.

إن الدراسات الاقتصادية تقول : لو أن أغنياء المسلمين أدوا زكاة أموالهم ما وجدت محروماً ولا فقيراً ولا عاطلاً ولا سارقاً ولكن لما تهاون المسلمون بهذه الشعيرة جرى ما جرى ، إن أحدهم لينفق الملايين لوجه الشيطان ولا ينفق الملاليم لوجه الله تعالى ، وإن أنفق أبطل صدقته بالمن والأذى يقول الله تعالى في حق هؤلاء وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة:٣٤ ، ٣٥] .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال : قال رسول الله ﷺ " وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ. " [متفق عليه] .

والمال سوف يسأل عنها الإنسان مرتين يوم القيامة يقول النبي ﷺ " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ " [رواه الترمذي وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ] .

فهل اتقى أغنياء المسلمين الله في أموالهم وينفعون بها المسلمين قبل أن يأتي ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨ ، ٨٩]

بَطَر النِّعمة وشكوى الفقر

بَطَر النّعمة : استخفّها وكَفَرها ولم يَشْكُرها يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص : ٥٨] .

وهذه الآية الكريمة تقرر سنة باقية إلى يوم القيامة وهي أن بَطَر النَّعْمة، وعدم الشكر عليها، هو سبب هلاك الناس؛ وبالتالي على المسلمين أن يحذروا من البطر والأشر، وعدم الشكر على ما أنعم الله عليهم من نِعَم، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها خاوية خالية، وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروي قصة البطر بالنعمة، وقد فني أهلها فلم يخلفوا أحداً، ولم يرثها بعدهم أحد.

إن الطمع والجشع وعدم الرضا أصاب قلوب كثير من المسلمين فجعل الله الفقر بين عينيهم فلا يغتنوا أبداً .

فعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال " مَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الآخِرَةَ جعلَ اللهُ تباركَ وتعالى الغِنَى في قلبِهِ وجَمَعَ لهُ شَمْلَهُ ونزعَ الفقرَ من بَيْنِ عَيْنَيْهِ وآتَتْهُ الدنيا وهيَ رَاغِمَةٌ فلا يُصْبِحُ إِلَّا غَنِيًّا ولا يُمسي إِلَّا غَنِيًّا ومَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الدنيا جعلَ اللهُ الفقرَ بين عَيْنَيْهِ فلا يُصْبِحُ إِلَّا فَقِيرًا ولا يُمسي إِلَّا فَقِيرًا " [صححه الألباني] .

وإذا قارن أفقر المسلمين اليوم بين ما أنعم الله عليه من رزق وبين ما كان عليه أفضل الخلق أجمعين ﷺ لما شكا الفقر أبداً .

ذكر عمر بن الخطاب ما أصاب الناس من الدنيا قال: " لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ " [رواه مسلم] الدَّقَل : أردأ التمر .

وعن أبى طلحة قال : " شَكَوْنَا إِلى رَسُولِ الله ﷺ الجَوعَ وَرَفَعْنَا عَنْ بُطُونِنَا عَنْ حَجرٍ فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ حَجَرَيْن " [رواه الترمذى]

أُنَاس مِنْ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فلم يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ أَعْطَاهُ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ مَا يَكُنْ عِنْدِى مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ "

[متفق عليه]

ولو قارن هذا الذي يشكو الفقر دائماً ويترحم على أيام زمان لو قارن بين حياته – التي يشكو منها مُرَّ الشكوى – وبين حياة أبيه وجده لقبّل يديه ظهراً لبطن شكراً على نعم الله وآلائه ! فهل أدى هؤلاء الناس شكر النعمة واتقوا الله تعالى وأخلصوا عملهم ابتغاء وجهه تعالى ؟

إن تقوى الله مفتاح خزائن الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

فجعل اله تعالى التقوى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات، ووعد بالمزيد لمن شكر فقال : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] .

الإسراف والترف

ومن أمراضنا التي دمرت مجتمعاتنا الإسراف والترف .

والإسراف لغة : مُجَاوَزَة الحَدِّ ، وأسرف مالَه : بدَّدَه وجاوز الحدّ في إنفاقه وتبذيره .

والإسراف اصطلاحاً : هو صرف الشيء فيما لا ينبغي زائدًا على ما ينبغي .

أما التَّرَف فيقول عنه علماء اللغة : هو التَّنَعُّمُ، والمُتْرَفٌ من كان مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلاً ، وهو : الذي قد أَبْطَرَتْه النعمةُ وسَعة العيْشِ. وأَتْرَفَتْه النَّعْمةُ أَي أَطْغَتْه ، وهو : المُتَنَعِّمُ المُتَوَسِّعُ في مَلاذِّ الدنيا وشَهواتِها.

والإسراف والترف مرضان قديمان لكنهما زادا في العقدين الأخيرين فهناك إسراف كبير في الترف يسيطر على أمتنا العربية فالكماليات أضحت ضروريات والترفيهات صارت أساسيات ، فمثلاً : في مجال الأكل وهو مما لا يستغنى عنه إنسان تجد الناس – وخاصة الأطفال والشباب – قد أعرضوا عن طعام المنزل وأسرفوا في الأكل خارجه في محال أجنبية أو مصرية تبيع الوجبات الجاهزة وغيرها من الأطعمة الدخيلة على مجتمعنا العربي الإسلامي وتلك الأطعمة لا تسمن ولا تغنى من جوع إنما ذات خطورة شديدة على الصحة واقتصاد الأسرة وكل يوم نسمع عن حالات تسمم بسبب هذه المأكولات غير الآمنة صحيّاً بل المؤكد ضرها لكنه الإسراف والترف .

ومن لا يأكل في هذه المحال فحتماً يشترى أكياس البطاطس المحمرة والمشروبات الغازية وغير ذلك من الأطعمة المغلفة أو المشروبات المعلبة .

إن نظرة سريعة لنفقات طلاب المدارس والجامعات على هذه المأكولات والمشروبات – غالية الثمن ضارة التأثير – لتثبت بجلاء مدى الإسراف في الترف الذي وصلنا إليه .

كان الطلاب قديما يأكلون ما تُعدُّه لهم الأمهات من أطعمة صحية – كالجبن والبيض والفول المدمس – ولا يأخذون من المصاريف إلا ما يشترون به لوازم الدراسة أو المواصلات وهذه الأجيال هي التي حرَّرت

مصر وبنت حضارتها ، أما اليوم فإن طعام البيت لا يؤكل رغم فائدته وخلوه من المواد الحافظ المهلكة ومن الفساد الناتج عن تحلل المواد العضوية في الأطعمة الجاهزة ، وإنما الذي يأكله هؤلاء الأطفال والشباب هو ما يشترونه من أطعمة ومشروبات تكلفهم الكثير من الجنيهات في شرائها ، والكثير من الجنيهات في العلاج منها !!

إن الناظر إلى هؤلاء الشباب ليخيل إليه أن هذه الأمة غنية إلى درجة كبيرة تسمح لها بهذا الترف والإسراف ، والحقيقة المؤلمة أن هذه الأمة فقيرة معدمة لا يوجد فيها من لا يشكو من الفاقة والفقر والمرض !!

إن الله تعالى جعل ترف الأمم سبباً لهلاكها ونذيراً لدمارها .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦] .

وقرأ عليٌّ رضي الله عنه " أَمَّرْنا " بالتشديد أي سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم ، وقيل " أمرنا " أي أكثرنا من المترفين المنعمين قال أبو عبيد: وإنما اخترنا "أمرنا" لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمترف: المنعم؛ وخصوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم . (١)

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود : ١٦] .
"ما أترفوا فيه" أي من الاشتغال بالمال واللَّذات، وإيثار ذلك على الآخرة .

لقد توعد الله تعالى المترفين بالفقر والجوع وها نحن نشهد كل يوم الحالة الاقتصادية تسير من سيء لأسوأ بسبب إهمال العمل البنَّاء ،

---

(١) انظر " تفسير القرطبى " ج١٠ ص ٢٣٤ .

وانتشار الكسل والاسترخاء ، وبسبب الإسراف في الترف وبطر النعم الذي عمَّ الناس .

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٤] هم يجأرون " أي يضجون ويستغيثون. وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور .

هذا عن عذابهم في الدنيا فإما عذابهم في الآخرة فيجعلهم الله تعالى في سموم وحميم .

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾

[الواقعة : ٤١ – ٤٥]

ولقد وصف الله تعالى المبذرين بأنهم أخوان الشياطين في التبذير والسفه ومعصية الله ، والتبذير لا يكون بكثرة الإنفاق إنما التبذير يكون بإنفاقه في غير الحق فربما صرف رجل الآلاف ولا يعد مسرفاً لأنه صرفها في منفعة لا بد منها ، وقد يعد مبذراً بإنفاقه اليسير في شراء شر لا خير فيه .

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾

[الإسراء : ٢٦ – ٢٧]

قال ابن مسعود: التبذير : الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .(١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ٦٩ .

وليس معنى هذا إن يُقَتِّر الإنسان على نفسه وأولاده إنما معناه أن يحسن التصرف فيما عنده من نعم ويعتدل في الإنفاق فإنه مسئول عن ماله " مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ " [صحيح الترمذى] .

وميزان العدل الذي يجب أن يزن به الإنسان إنفاقه هو قوله تعالى :

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٩] .

إننا نستهلك أضعاف ما ننتج ، ونرمى في القمامة أضعاف ما نأكل ، ونبطر النعم أضعاف ما نشكر ، ونطلب من الأجر أضعاف ما نستحق، ونضيع الوقت في الملاهى أضعاف ما نعمل !

أعرفتم لماذا تقدم الغرب وتخلفنا . أرجو أن نعى الدرس جيداً وأن نتدارك ما فاتنا .

إذا سألت الموظف : لماذا ترتشي ؟ وإذا سألت العامل لم تأخذ من الأجر فوق ما تستحق ؟ وإذا سألت الفلاح لم ترش المبيدات المُسَرْطِنة؟ وإذا سالت التاجر لم تغش ؟ فإن الإجابة تكاد تكون واحدة وهى : لأن ما نحصل عليه من أجر لا يفي بحاجاتنا وحاجة أولادنا ، وإن كان الحلال يكفي ما مددنا أيدينا للحرام فنحن عبيد لقمة العيش نطلبها حيث وجدناها مغموسة بالحلال أو بالحرام .

وهؤلاء الناس فعلاً عبيد لغير الله عبيد للدرهم والدينار استعبدهم المال فعبدوه ولم يكتفوا بالحلال وهو – بحمد الله – كاف ومتيسر لكن نفوسهم الجشعة وقلوبهم المريضة تطلب المزيد " لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لا بْتَغَى وادياً ثالثاً ، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابن آدمَ إلا الترابُ "
[أخرجه مسلم]

يقول النبي ﷺ في هؤلاء " تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ (من أنواع الثياب) إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ " [رَوَاهُ البُخَارِى] .

فإن قنع هؤلاء أدعياء الفقر بالحلال واستغنوا به عن الحرام وأخلصوا عملهم وطلبوا من الله أجرهم بارك الله لهم في أموالهم وحفظ لهم أزواجهم وعيالهم ، ووقاه الله شر الأمراض ، وشر استغلال المستغلين .

لكن معظم هؤلاء كعبد السوء الذي لا يعمل إلا إذا أخذ ولا يقسط إلا إذا استوفي وكأنه ليس وراء الدنيا آخرة وليس بعد الموت حساب !

أعلمتم لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟ لأننا أصبحنا كعبيد السوء لا نعمل لله بل للدرهم والدينار والخميصة والقطيفة كثير منا اتخذوا الدنيا إلهاً فاتخذتهم عبيداً ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، واستغلوا الناسَ فاستغلهم الناسُ ، سَرَقوا فَسُرِقوا ، قبلوا الرشوة فأُجْبِروا على دفع أضعافها .

لماذا تقدم الغرب وتخلفنا

لقد تقدم الغرب لأنهم أخذوا في أسباب العلم والتفكير العلمي وشجعوا البحث والتجريب وتحرروا من عبادة القديم والتقليد ولم يستسلموا للأفكار الشائعة بل عملوا بجد وإخلاص لإيجاد حلول جديدة و أتاحوا الفرصة لمفكريهم ومبدعيهم أن يقودوا الركب ، وحاربوا الجهل والتخلف والتقليد ، وجعلوا مقياس الترقي فيهم للمبدعين المبتكرين الذين يحسنون استخدام عقولهم ، وصرفوا مبالغ طائلة على المخترعات والابتكارات والاكتشافات وكافئوا المتميزين وقدروهم وحثوهم على مواصلة البحث والتجريب ، وذللوا أمامهم كل العقبات ووضعوا كل إمكانياتهم في خدمتهم .

إن أمريكا لتنفق على البحث العلمي ٢.٥ % من ميزانيتها ، أما إسرائيل فتنفق ٣% من ميزانيتها على البحث العلمي وهما أكبر دواتين تنفقان على البحوث العلمية، فكم ننفق نحن ؟! ويجيبك المهتمون بالبحث العلمي في مصر قائلين :

رغم كل ما يقال عن أهمية دفع البحث العلمي في الجامعات المصرية إلا أن دفع العجلة يتم تقريبا بالزق ، وكأن البحث العلمي قد احتل المرتبة الدنيا في سلم أوليات الإنفاق الجامعي فالموارد البحثية شحيحة للغاية وتمويل الجامعات المصرية للبحث العلمي غير موجود بأي مقياس حقيقي ، والبحث العلمي الذي يعد أحد أهم وظائف الجامعات لا يحظى إلا بالدعم الكلامي فقط الذي لا يرقى إلى مستوى الفعل. (١)

لذا كان من الطبيعي أن يتقدموا ويبسطوا نفوذهم علينا خاصة أنهم لا يكتفون بإعطاء الفرصة لأفراد شعوبهم لكي يبتكروا ويبدعوا ويساهموا في تقدمهم ورقيهم بل استقطبوا العقول النابهة من كل بلاد العالم وخاصة البلاد المتخلفة وييسروا لهم جميع السبل وهيئوا لهم جميع الظروف ليبدعوا ويبتكروا فأبدعوا وابتكروا وأتوا بالابتكارات مع أن هؤلاء الأشخاص كانوا في بلادهم طاقات معطلة ، وكمٌّ مهمل ، وهذا سر تقدم الغرب وتخلف العرب .

إن الغرب أحسن تعليم أبنائه فنمى مواهبهم وفجر قدراتهم العقلية وشجع المفكرين والمتميزين ، وجعل مقياس الترقي هو الإبداع ، وشجع على التجريب والتجديد وحارب التكرار والتقليد أما نحن فأسأنا تعليم

---

(١) جريدة " الأخبار " المصرية بتاريخ ٨ / ٤ / ٢٠٠٤ .

أولادنا وقتلنا فيهم الإبداع والتفكير وشجعنا فيهم الحفظ والتقليد ، وجعلنا مقياس الترقي فينا هو اتباع التعليمات والروتين وحاربنا التجريب والتجديد حتى أصبح التعليم عندنا شعاره بقدر ما تحفظ من الملازم والملخصات تحصل على أعلى الدرجات ! وبقدر ما تُعْمل عقلك وتبدع يكون حظك من الفشل والإخفاق ! ، أما في مجال العمل حكومي فبقدر ما تتمسك بالروتين وتنافق المسئولين تترقى وتكون من المرموقين !

فإذا تركنا نظام التعليم وذهبنا إلى مجال الثقافة والفن فإننا نجده يدعم الفساد ويثير الغرائز ويغرى بالانحلال فإذا جئنا إلى مجال الدعوة الدينية فإن وعاظنا يدعمون قيم التقليد والإتباع للقديم ويحذرون من التجديد والإبداع ؛ فالسلف لم يترك للخلف شيئا يضيفونه في مجال الدين والدنيا ، وباب الاجتهاد قد أغلق بالضبة والمفتاح والخير كل الخير في اتباع القديم والشر كل الشر في الإبداع والتجديد !!

هل عرفنا لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا ؟

ولا يكف وعاظنا عن رمى الغرب بالمعاصي والفجور وحمد الله على ما هم فيه من تقوى وإيمان مع أن معاصي الغرب لم تقف ضد تقدمهم ، وإيمانهم المزعوم عرقل تقدمنا ، والحقيقة أننا لم نبصر إلا معاصي الجوارح عند غيرنا وعمينا عن معاصي القلوب فينا .

أنواع المعاصي

المعاصي نوعان : معاصي قلوب ومعاصي جوارح . معاصي القلوب كما بينا هي : النفاق والرياء وحب الرياسة ... ومعاصي الجوارح أشهرها الزنا وشرب الخمر ، ومعاصي القلوب أشد فتكاً بالمجتمع من معاصي الجوارح وهذا هو السر في تخلفنا وتقدم الغربيين لقد تفشت فينا

أمراض القلوب فانتشر فينا النفاق فلا يوجد مرءوس إلا وينافق رئيسه أما الكذب فلا يكاد يسلم منه أحد – إلا من رحم ربى – فالناس تكذب بمناسبة وبدون مناسبة ، مضطرة وغير مضطرة لدرجة أنك إذا أردت إن تستوثق من كلام شخص فما عليك إلا أن تستحلفه بكل عزيز عليه تستحلفه بالأحياء والأموات بالقرآن والإنجيل وبرحمة أبيه وأمه ، وتهدده إن كان كاذباً بالدعاء عليه بالعمى أو يفرمه قطار أو ... لماذا كل هذا؟ حتى تضمن أن يصدقك القول !! أ أريتم الحال التي وصلنا إليه لا يكاد احد يقول الصدق وإن قاله لا يكاد أحد يصدقه !! أما أمراض مثل : الإهمال ، والمحسوبية ، والواسطة ، وعدم إتقان العمل ، والسلبية، والتواكل ... فحدث ولا حرج والعجيب أننا نسأل لماذا تقدم غيرنا وتخلفنا؟!

والحقيقة إن الغرب لم تتفش فيهم أمراض القلوب كما تفشت فينا نحن المسلمين! فهم يقدسون العمل ، ويقولون الصدق ولا يكذبون – على العموم – ولا ينافق المرءوس رئيسه بل يراجعه إن أخطأ ويشكوه لرئيسه إن قصَّر ، وهم يتقنون إعمالهم حباً في الإتقان وليس سمعة ورياء ... لذا تقدموا وتخلفنا .

نعم كثير منهم يرتكبون بعض معاصي الجوارح كالزنا وشرب الخمر لكن هذه المعاصي – في الغالب – لا تؤثر على عملهم فلا يمارسونها إلا في أوقات فراغهم وأجازاتهم ، أما عندما تدق ساعة العمل فالكل يعمل بإخلاص ونظام وتعاون ملفت للنظر لذا تقدموا وتخلفنا .

لقد قدسوا النظام واحترموا القوانين وأدمنوا النظافة والجمال وعبثنا نحن بكل هذا استهنا بالقوانين وأدمنا الفوضى واللامبالاة والسلبية والقبح والفساد !!

ولنذهب في رحلة إلى أمريكا لنرى لماذا تقدموا وتخلفنا يصحبنا في هذه الرحلة الصحفي عادل حمودة في كتابه " أمريكا الجنة والنار " نام الصحفي في الطائرة ولم يشاهد فيلمًا كان يعرض على الركاب وإذا بالمضيفة تعيد له ثلاث دولارات من ثمن تذكرة الطائرة لأنه لم يشاهد الفيلم وعندما أظهر عجبه من هذا التصرف قالت له : " كيف تدفع ثمن خدمة لم تحصل عليها ؟ "

سؤال غريب فوجئت به .. سؤال غريب بالنسبة لي ، وربما بالنسبة لغيري من ملايين المصريين .. فنحن دائماً ندفع ثمن خدمات لا نحصل عليها .. ندفع ضرائب لا نشعر بعائدها : أدفع دعماً لصندوق معاشات ضباط الشرطة وأتعرض لإهاناتهم عند استخراج رخصة السيارة، وعند تجديد بطاقتي الشخصية وعند دخول قسم البوليس شاكياً أو صاحب حق .. أدفع ضرائب للطرق على كل لتر بنزين تستهلكه سيارتي ولا أجد سوى المطبات والحفر في الشوارع .. أدفع رسوم النظافة ولا أرى سوى التراب وأكوام القمامة .. أدفع ثلث دخلي ضرائب مهن حرة ولا أجد سريراً في مستشفي ولا ابتسامة في مكتب ولا سلعة في مجمع استهلاكي !

رأيت الرئيس نيكسون وهو يبكى في إحدى محطات التليفزيون بمدينة واشنطون وهو يسجل حواراً بمناسبة مرور ١٠ سنوات على أشهر فضائحه وأشهر الفضائح الأمريكية .. " ووترجيت " كان نيكسون تتساقط منه حبات العرق وحبات الخجل وقطرات الحياء والكسوف .

– سيدي الرئيس : هل أنت تشعر بالندم على فضيحتك في ووترجيت.

– نعم !

– هل أنت مذنب ؟

– نعم !

– هل تشعر أحياناً باحتقار نفسك بسبب هذه الجريمة الفظيعة التي ارتكبتها في حق الحرية ؟

– نعم !

– هل مسحتَ كل حسناتك بهذه الخطيئة ؟

– نعم !

لم يكن نيكسون يملك سوى أن يجيب بكلمة واحدة : نعم ! كانت كل إجاباته ذليلة .. مسكينة .. منكسرة.. وضعيفة .... ماذا فعل لينال كل هذا العقاب ؟

تجسس وتصنت .. زرع ميكرفونات في أحد مباني الحزب المنافس له ..هل هذه جرائم تستحق العقاب؟ هل هذه جرائم تستحق طرد "الحاكم"؟!

لا أعتقد أن هذه الجرائم تستحق حتى الإشارة إليها خاصة إذا كان الذي يناقشها مواطن قادم من الشرق الأوسط أو من العالم الثالث أو من المنطقة العربية ففي الشرق الأوسط ، انتهاك واغتصاب حقوق الإنسان أسهل من شرب زجاجة مياه غازية . وفي المنطقة العربية سجون سياسية ، قُتِل وعُذِب فيها مئات من البشر لأنهم قالوا : لا .. وتهم لفقت لرجال تجرءوا وخرجوا عن النص الحكومي أو شخبطوا بالطباشير على جدران الحكام وكلاب مسعورة متوحشة نهشت بأسنانها وأنيابها لحم كتاب وصحافيين مزقوا وثيقة زواجهم من السلطة ومارسوا الحرية .. كل هذا يحدث ومازال يحدث دون أن يسقط حاكم واحد ولا أن يعاقب موظف واحد ولا أن يحال ضابط واحد إلى المعاش ..

أمريكا كلها تتحدث عن ووترجيت وكأنه حادث لا يزال طازجاً وكأنه وقع من عشر ساعات لا منذ عشر سنوات .. لماذا كل هذه الضجة ؟

يقولون : حتى لا ننسى الكارثة التي سنقع فيها .. لا بد لأي مجتمع يتطلع إلى المستقبل من ذاكرة قوية ونشطة تذكره بعيوب الماضي .. الذاكرة القوية كالسيف الحاد ، يجب أن توضع على رقبة المجتمع حتى لا يكرر فضائحه وخطاياه .

صدقني لو قلت لك إن بعض رجال حزب الرئيس نيكسون كانوا وراء الإبلاغ عنه ليس بسبب صراع شخصي على العكس كانوا أصدقاء له وكانوا من المستفيدين من استمراره وإنما لأن الجريمة هنا تمس المجتمع كله وتهدد النظام السياسي كله لأن الجريمة أكبر من أن يستوعبها التعصب للحزب أو الدفاع عن رئيس .. الجريمة هنا جريمة قومية .. جريمة ضد الحرية ..

لو كنت مكاني وسمعت هذا الكلام لخطر على بالك فورا أولئك الذين يرفضون أن نفتح ملفات التاريخ في بلادنا إنهم تحت دعوى نبش الماضي يريدون التستر على جرائم ارتكبت في حقنا جميعا .. وتحت شعار النظر إلى المستقبل يريدون منا أن ننسى ما جرى لنا .. والشعوب التي تنسى ما مضى عليها أن تنسى أيضا ما يمكن أن يحدث لها الآن وغدا وقبل قيام الساعة بساعة .. " (١).

***

(١) عادل حمودة " أمريكا الجنة والنار " ص٣٤ : ٥٤ بتصرف .

القلب والفنون الجميلة

الفنــون الجميلــة : كــالأدب ، والموســيقا ، والغنــاء ، والتــصوير ، والتمثيل...

مما يرتاح لها القلب وتسعد بها النفوس لما فيها من تناسق ونظام فـالأدب تناسـق للألفـاظ ونظـام لموسـيقا الكلمـات ، والغنـاء جمـال فـي الصوت ونظام في الأداء، والموسيقا تناسق للنغم ، والرسم تناسق لألوان والظـلال ، والتمثيل يجمع كل هذه الفنون ، ولكن يشترط الإسـلام إلـى جانب الجمال الفني عدم مخالفة الشرع .

هل كل لهو حرام ؟!

وهنـاك مـن يحـرم كـل فـن جميـل بـدعوى أنهـا تلهـى عـن ذكـر الله واستشهدوا بقوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان : ٦]

وبالحـديث الـشريف " كـل لهـو يلهـو بـه المـؤمن هـو باطـل إلا ثلاثـة ملاعبة الرجل أهله وتأديبه فرسه ورميه عن قوسه " ولقد ناقش العلماء هـذه الحجـة فـذكر ابـن حجـر العـسقلانى فـي شـرح البـاب الـذي عقـده البخـارى بعنوان " باب كل لهو باطل إذا شغل عن طاعة الله " فقال " أن هذا الحديث ليس دليلاً على تحريم الملاهى المباحة لأن أي عمل يلهى عن طاعة الله فهو حرام سواء أ كان هذا العمل مشروعاً أو مباحاً فليس التحريم خاصاً باللهو المباح فقط (كما يفهمه المحرمون لكل لهو

وفن وإن كان مباحاً) إنما يشمل أيضاً فيما يشمل كل عمل مشروع أو مندوب كصلاة النافلة أو تلاوة القرآن أو حتى فريضة كالسعي على المعاش أو طلب العلم .. إن كان هذا يشغل الإنسان عن عبادة مقررة حان وقت أدائها كالصلاة المفروضة مثلاً .

قوله (باب كل لهو باطل إذا شغله) أي شغل اللاهي به (عن طاعة الله) أي كمن النهى بشيء من الأشياء مطلقا سواء كان مأذونا في فعله أو منهياً عنه كمن اشتغل بصلاة نافلة أو بتلاوة أو ذكر أو تفكر في معاني القرآن مثلا حتى خرج وقت الصلاة المفروضة عمداً فإنه يدخل تحت هذا الضابط، وإذا كان هذا في الأشياء المرغب فيها المطلوب فعلها فكيف حال ما دونها " [1]

ويؤكد الإمام الشوكاني هذا المعنى فيقول : " يقول الغزالي : قوله ﷺ " فهو باطل " لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة انتهى. وهو جواب صحيح لأن ما لا فائدة فيه من قسم المباح على أن التلهى بالنظر إلى الحبشة وهم يرقصون في مسجده ﷺ كما ثبت في الصحيح خارج عن تلك الأمور الثلاثة .. وقد استدل المجوزون بأدلة منها قوله تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] ووجهه التمسك أن الطيبات جمع محلى باللام فيشمل كل طيب والطيب يطلق بإزاء المستلذ وهو الأكثر المتبادر إلى الفهم عند التجرد عن القرائن ويطلق بإزاء الطاهر والحلال وصيغة العموم كلية تتناول كل فرد من أفراد العام فتدخل أفراد المعاني الثلاثة كلها ولو قصرنا العام على بعض أفراده لكان قصره على المتبادر الظاهر وقد صرح ابن عبد السلام في دلائل الأحكام أن المراد في الآية بالطيبات المستلذات ..

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ج ١١ ص ٩١

ومن جملة ما قاله المجوزون أنا لو حكمنا بتحريم اللهو لكونه لهواً لكان جميع ما في الدنيا محرماً لأنه لهو لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [محمد:٣٦] .

ويجاب بأنه لا حكم على جميع ما يصدق عليه مسمى اللهو لكونه لهواً بل الحكم بتحريم لهو خاص وهو لهو الحديث المنصوص عليه في القرآن لكنه لما علل في الآية بعلة الإضلال عن سبيل اللّه لم ينتهض للاستدلال به على المطلوب وقد تقدم ما قاله ابن حزم ووافقه على ذلك أبو بكر ابن العربي في كتابه الأحكام وقال لم يصح في تحريم الغناء شيء وكذلك قال الغزالي وابن النحوي في العمدة وهكذا قال ابن طاهر إنه لم يصح منها حرف واحد والمراد ما هو مرفوع منها وإلا فحديث ابن مسعود في تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ﴾ [لقمان : ٦] قد تقدم أنه صحيح وقد ذكر هذا الاستثناء ابن حزم فقال إنهم لو أسندوا حديثاً واحداً فهو إلى غير رسول اللّه ﷺ ولا حجة في أحد دونه كما روى عن ابن عباس وابن مسعود في تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الآية أنهما فسرا اللهو بالغناء قال ونص الآية يبطل احتجاجهم لقوله تعالى ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ﴾ وهذه صفة من فعلها كان كافراً ولو أن شخصاً اشترى مصحفاً ليضل به عن سبيل اللّه ويتخذها هزواً لكان كافراً فهذا هو الذي ذم اللّه تعالى وما ذم من اشترى لهو الحديث ليروح به نفسه لا ليضل به عن سبيل اللّه انتهى .

قال الفاكهاني: لم أعلم في كتاب اللّه ولا في السنة حديثاً صحيحاً صريحاً في تحريم الملاهي وإنما هي ظواهر وعمومات يتأنس بها لا أدلة قطعية " (١)

---

(١) الإمام الشوكانى " نيل الأوطار " ج ٨ ص ١٧٩

ويقول د. يوسف القرضاوي : " الإسلام دين واقعي لا يحلق في أجواء الخيال والمثالية الواهمة، ولكنه يقف مع الإنسان على أرض الحقيقة والواقع. ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ولكنه يعاملهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

لذلك لم يفرض على الناس –ولم يفترض فيهم– أن يكون كل كلامهم ذكرا، وكل صمتهم فكرا، وكل سماعهم قرآنا، وكل فراغهم في المسجد. وإنما اعترف بهم وبفطرتهم وغرائزهم التي خلقهم الله عليها، وقد خلقهم سبحانه يفرحون ويمرحون ويضحكون ويلعبون، كما خلقهم يأكلون ويشربون .

ولقد بلغ السمو الروحي ببعض أصحاب النبي ﷺ مبلغاً ظنوا معه أن الجد الصارم، والتعبد الدائم لا بد أن يكون ديدنهم ، وأن عليهم أن يديروا ظهورهم لكل متع الحياة ، وطيبات الدنيا، فلا يلهون ولا يلعبون ، بل تظل أبصارهم وأفكارهم متجهة إلى الآخرة ومعانيها بعيدة عن الحياة ولهوها .

ولنستمع إلى حديث هذا الصحابي الجليل حنظلة الأسيدى – وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال يحدثنا عن نفسه: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقالَ : كيفَ أَنْتَ؟ يا حَنْظَلَةُ قالَ: قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قالَ: سُبْحَانَ اللهِ ما تَقُولُ؟ قالَ: قُلتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن عِندِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسْنَا الأزْوَاجَ وَالأوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حتَّى دَخَلْنَا علَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يا رَسُولَ اللهِ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَما ذَاكَ؟ قُلتُ :يا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن

عِندِكَ، عَافَسْنَا(لاعَبْنا) الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إنْ لو تَدُومُونَ علَى ما تَكُونُونَ عِندِي، وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علَى فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. " (١) [رواه مسلم] .

وكانت حياته ﷺ مثالاً رائعاً للحياة الإنسانية المتكاملة: فهو في خلوته يصلى ويطيل الخشوع والبكاء والقيام حتى تتورم قدماه، وهو في الحق لا يبالى بأحد في جنب الله، ولكنه مع الحياة والناس بشر سوى يحب الطيبات، ويبش ويبتسم، ويداعب ويمزح، ولا يقول إلا حقاً .

كان ﷺ يحب السرور وما يجلبه، ويكره الحزن وما يدفع إليه من ديون ومتاعب، ويستعيذ بالله من شره ، ويقول : " اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ الهمِّ والحزنِ " [متفق عليه] .

ومما روى في مزاحه أن امرأة عجوزا جاءته تقول له: يا رسول الله، ادع الله لى أن يدخلنى الجنة. فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوزاً . وانزعجت المرأة وبكت –ظناً منها أنها لن تدخل الجنة– فلما رأى ذلك منها بين لها غرضه: إن العجوز لن تدخل الجنة عجوزاً ، بل ينشئها الله خلقاً آخر، فتدخلها شابة بكراً . وتلا عليها قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة:٣٥-٣٧]

وكذلك كان الصحابة الطيبون الطاهرون، يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون، معرفة منهم بحظ النفس، وتلبية لنداء الفطرة وتمكينا

---

(١) وفي رواية " روحوا القلوب ساعة فساعة " يقول الإمام السيوطي في شرح الحديث :
أي أريحوها بعض الأوقات من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب. قال أبو الدرداء: "إنى لأجِمُّ فؤادى ببعض الباطل" أى اللهو الجائز "لأنشط للحق". وذكر عند المصطفي ﷺ القرآن والشعر، فجاء أبو بكر فقال " أقراءة وشعر؟" فقال "نعم، ساعة هذا وساعة ذاك". وقال على كرم الله وجهه "أجِمّوا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان" أى تكل " الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي .تتمة باب حرف الراء .

للقلوب من حقها في الراحة، واللهو البريء لتكون أقدر على مواصلة السير في طريق الجد. وإنه لطريق طويل.

قال على بن أبى طالب : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة.

وقال: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمي.

وقال أبو الدرداء : إنى لأستجم نفسي بالشيء من الباطل، ليكون أعون لها على الحق.

فلا بأس على المسلم أن يتفكه ويمزح بما يشرح صدره، ولا حرج عليه أن يروح نفسه ونفوس رفقائه بلهو مباح. على ألا يجعل ذلك ديدنه وخلقه في كل أوقاته، ويملأ به صباحه ومساءه، فينشغل به عن الواجبات، ويهزل في موضع الجد. ولذا قيل (أعط الكلام من المزح بقدر ما يعطى الطعام من الملح).

وقد أذن النبي ﷺ للحبشة أن يلعبوا بها في مسجده الشريف، وأذن لزوجته عائشة أن تنظر إليهم، وهو يقول لهم: "دونكم يا بنى أرفدة ". وهى كنية ينادى بها أبناء الحبشة عند العرب.

ويبدو أن عمر -لطبيعته الصارمة- لم يرقه هذا اللهو، وأراد أن يمنعهم، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، فقد روى الصحيحان عن أبى هريرة قال: بينما الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ بحرابهم، دخل عمر فأهوى إلى الحصباء فحصبهم بها، فقال رسول الله ﷺ : "دعهم يا عمر".

وإنه لتوجيه نبوى كريم في معاملة الزوجات وترويح أنفسهن بإتاحة مثل هذا اللهو المباح. قالت عائشة زوج النبي الكريم: " لقد رأيت النبي ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون

أنا الذي أسأمه، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو".

وقالت كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ في بيته –وهن اللُعَب– وكان لي صواحب يلعبن معي، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن (يستخفين هيبة منه) فيسر بهن إلى، فيلعبن معي".(١)

ويقول الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الفقيه المجتهد محمود شلتوت: " إن الله خلق الإنسان بغريزة يميل بها إلى المستلذات والطيبات التي يجد لها أثراً في نفسه، به يهدأ وبه يرتاح وبه ينشط وتسكن جوارحه، فتراه ينشرح بالمناظر الجميلة كالخضرة المنسقة والماء الصافي والوجه الحسن والروائح الزكية، وأن الشرائع لا تقضى على الغرائز بل تنظمها، والتوسط في الإسلام أصل عظيم أشار إليه القرآن الكريم في كثير من الجزئيات، منها قوله تعالى :

﴿يَا بَنِى آدَمَ خـُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف ٣١]

وبهذا كانت شريعة الإسلام موجهة الإنسان في مقتضيات الغريزة إلى الحد الوسط ، فلم تترك لانتزاع الغريزة في حب المناظر الطيبة ولا المسموعات المستلذة وإنما جاءت بتهذيبها وتعديلها إلى مالا ضرر فيه ولا شر يقول ابن حزم إن الأمر مرتبط بالنية فمن نوى ترويح نفسه وتنشيطها للطاعة فهو مطيع محسن، ومن لم ينو لا طاعة ولا معصية فهو لغو معفو عنه، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزها وقعوده على باب داره متفرجاً .

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الحلال والحرام في الإسلام " باب " في اللهو والترفيه "

ولقد كنت أرى أن هذا القدر كاف في معرفة حكم الشرع في الموسيقا وفي سائر ما يحب الإنسان ويهوى بمقتضى غريزته لولا أن كثيراً من الناس لا يكتفون بل لا يؤمنون بهذا النوع من التوجيه في معرفة الحلال والحرام ، وإنما يقنعهم عرض ما قيل في الكتب وأُثِر عن الفقهاء ، وإذا كان ولابد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع (أي سماع الغناء) في إثارة الشوق إلى الحج وفي تحريض الغزاة على القتال وفي مناسبات السرور المألوفة كالعيد والعرس ، وقدوم الغائب وما إليها . ورأيناهم فيما وراء ذلك على رأيين يقرر أحدهما الحرمة ، ويستند إلى أحاديث وآثار ، ويقرر الآخر الحِّل ، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار ، وكان من قول القائلين بالحِّل : " إنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله ، ولا في معقولهما من القياس والاستدلال ما يقتضي تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات " وقد تعقبوا جميع أدلة القائلين بالحرمة وقالوا:إنه لم يصح منها شيء . (١)

الأدب

ومن أهم الفنون التي تميل إليها القلوب فن الأدب : الشعر والنثر .

فالكلمة في مجال الأدب تتوقد حيوية وإثارة وتتسم بالجمال والمتعة ، وتفعل بالمتلقي فعل السحر لكن الإسلام يشترط أن تكون الكلمة نافعة غير ضارة بناءة غير هدامة فالاستمتاع بجمال التعبير لا ينسينا أهمية معناه وخطورة مغزاه فإن مجَّد الأدب الخمر ، وإن تفحش في الغزل ، وإن أقذع في الهجاء ، وإن خرج على الشرع فهو غير مقبول وإن كان بارعاً في قيمه الفنية والتعبيرية .

---

(١) الإمام الأكبر محمود شلتوت " الفتاوى " دار الشروق ص ٤١٠ – ٤١٣ بتصرف .

يقول الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر " الأدب في أوضاعه المستقيمة إنما هو لإصلاح المجتمع والسير به في طريق الكمال خطوة فخطوة وأن من يضع لبنة في صرح الفضيلة فإنما يضع لبنة في صرح الكمال وأن من يضع لبنة في صرح الرذيلة فإنما يضع لبنة في صرح النقص . " (١)

فالشعر الجميل معنى وبلاغة " كان رسول الله ﷺ يسمعه ، وأبو بكر ينشده ، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا. قال ابن عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولى النهي، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا، ولم يكن فيه فحش ولا خناً ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله؛ وروى أبو هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: " أصدق كلمة – أو أشعر كلمة – قالتها العرب قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل " (٢)

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : " إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل "

[رواه الترمذى وأحمد]

ولقد فقد الشعر معناه ومبناه عند كثير من شعراء الحداثة وما بعدها فألفاظه ومعانية تتسم عندهم بالاستغلاق والاستبهام ، وتفتقر إلى

---

(١) الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود " موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة " ص ٢٣
(٢) " تفسير القرطبي " ج ١٣ ص ١٤٧ .

الفصاحة والإبانة والبيان ، لقد تحول الشعر إلى ألاعيب لفظية مجردة من قواعد اللغة ومن قواعد الفن الشعري لا يربط بين الألفاظ رابط ولا يحكمها قانون ، وإذا انتقد هذا المذهب ناقد واتهم شعرهم بالاستغلاق والاستبهام رموه بالجهل والتخلف وقالوا : إن العيب فيه وليس فيما يكتبون من ألاعيب لفظية ! ولن أطيل في هذا الموضوع لأنه – والحمد لله – لا يقرأ أدبهم سواهم فلقد أعرض الناس عن قراءة أدبهم فأصبحت كتابتهم موجهة لأنفسهم ولم يكتب لها قدراً من الذيوع والانتشار .

فن الموسيقا والغناء

ومما شاع في زمننا هذا شيوعاً ليس له حد الموسيقا والغناء لدرجة جعلت المشتغلين بهذه الفنون لا يبارون في الشهرة والثراء مما أغرى كل عاطل أو باحث عن الشهرة والثراء أن يقتحم هذا المجال ويمتهن هذه المهنة مما جعل الغناء في السنوات الأخيرة طريقاً سهلاً للربح السريع والشهرة الواسعة فدخل هذا المجال دخلاء على الفن الجميل ليس بغرض حبهم للغناء وحرصهم على تقديم فن جميل بل بهدف الاسترزاق، والعجيب أن هذه العملة الرديئة قد طردت العملة الصحيحة من السوق والمسئول عن ذلك أجهزة الإعلام التي ركزت على أصحاب الأصوات المنكرة والألحان المكررة فألفت أذن الشباب القبيح ، وتعودت عيونهم المنكر – الفيديو كليب – ففسدت الأذواق ، وانحلت الأخلاق ، نقول هذا حتى لا يظن الإنسان أن كل أنواع الغناء مباحة فيقبل عليها فيسقط في هوة الحرام .

أما الغناء الجميل المهذب للنفوس الخالي من المنكرات فإنه مباح خاصة في المناسبات السعيدة كالأعياد والأفراح بشرط إلا يقرن بمحرم أو يشغل عن واجب .

فقد سمع النبي الغناء وأمر عائشة بأن تكون هديتها لعروس ذات قرابة لها مغنياً يغنى لها .

وهاك الحديث الذي رواه ابن ماجة " عن ابن عباس قال "أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول اللّه ﷺ فقال أهديتكم الفتاة قالوا نعم قال أرسلتم معها من يغنى ؟ قالت : لا... فقال ﷺ : إن الأنصار قوم فيها غزل فلو بعثتم معها من يقول أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم " [رواه ابن ماجه] .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ : ا عائِشَةُ، ما كانَ معكُمْ لَهْوٌ؟ فإنَّ الأنْصارَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهْوُ " [رواه البخارى] ويشرح البخاري " اللهو " فيقول : اللهو مباح ، كضرب دف وغناء ليس فيه وصف للمفاتن وما يثير كوامن النفس ".

بل يعقد البخاري فصلاً عنوانه " سنة العيدين لأهل الإسلام " استهله بهذا الحديث" عن عائشة رضى الله عنها قالت: دَخَلَ أبو بَكْرٍ وعِندِي جَارِيَتَانِ مِن جَوَارِي الأنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بما تَقَاوَلَتِ الأنْصَارُ يَومَ بُعَاثَ(١) قالَتْ: وليسَتَا بمُغَنِّيَتَيْنِ، فَقالَ أبو بَكْرٍ :أمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ في بَيْتِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وذلكَ في يَومِ عِيدٍ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ : يا أبَا بَكْرٍ، إنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وهذا عِيدُنَا." [متفق عليه] (٢)

وورد عن بعض صحابة رسول الله سماعهم للغناء فقد جاء في الحديث الصحيح عن عامر بن سعد قال : " دخَلتُ على قَرَظةَ بنِ

---

(١) يوم بعاث يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج .

(٢) ولمزيد من التفاصيل على إباحة الغناء يرجع إلى فتاوى الأزهر الشريف ، " فقه السنة " للشيخ سيد سابق ، فتاوى د. يوسف القرضاوى ، وفتاوى الشيخ شلتوت ، والشيخ عطية صقر ، والشيخ محمد الغزالي ، وغيرهم ...

كعبٍ ، وأبي مَسعودٍ الأنصاريِّ في عُرسٍ ، وإذا جَوارٍ يُغنِّينَ ! فقُلتُ : أنتُما صاحِبا رسولِ اللهِ ، ومن أهلِ بدرٍ ، يفعَلُ هذا عندَكُم . فقالَ : اجلِس إنْ شئتَ ، فاسمَع معَنا ، وإنْ شِئتَ اذهبْ ، قَد رخَّصَ لنا في اللَّهوِ عندَ العُرسِ " [صحيح النسائي]

لكنا لسنا مع كل غناء فإذا كانت الكلمة خادشة للحياء فاحشة أو داعية إلى منكر ، وإذا كان الأداء فيه تكسر وتخنث ، وإذا صحب هذا الغناء رقص مثير فهو حرام بلا خلاف .

يقول د. يوسف القرضاوي :

" ومن اللهو الذي تستريح إليه النفوس، وتطرب له القلوب، وتنعم به الآذان الغناء ، وقد أباحه الإسلام ما لم يشتمل على فحش أو خنا أو تحريض على إثم ، ولا بأس أن تصاحبه الموسيقى غير المثيرة.

ويستحب في المناسبات السارة، إشاعة للسرور، وترويحا للنفوس وذلك كأيام العيد والعرس وقدوم الغائب، وفي وقت الوليمة، والعقيقة، وعند ولادة المولود ...

وقد روى عن كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم سمعوا الغناء ولم يروا بسماعه بأساً .

أما ما ورد فيه من أحاديث نبوية فكلها مثخنة بالجراح لم يسلم منها حديث من طعن عند فقهاء الحديث وعلمائه، قال القاضي أبو بكر بن العربي: لم يصح في تحريم الغناء شيء. " (١)

إن الغناء المباح إذن هو الذي يثير العواطف النبيلة لا الغرائز الفاجرة ، كما يشترط فيه ألا يصاحبه محرم : كخمر أو رقص وأن

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الحلال والحرام في الإسلام " باب " في اللهو والترفيه " بتصرف .

ويؤدى بطريقة خالية من التكسر ، إلى جانب سلامة الكلام من المحرم والقبيح ،[1] .

أما الأغاني التي انتشرت في السنوات الأخيرة تحت عنوان أغاني شبابية أو حديثة فلا علاقة لها بالفن الجميل ولا الخلق القويم فقد خلت من المعاني الشريفة، ومن الأصوات الجميلة ، واشتملت على رقص فاجر ، وعرى فاضح ، وتكسر مثير ، والأغاني بهذا الشكل حرام حرام حرام فهى خالية من كل فن جميل متصفة بكل محرم وقبيح ، وبالطبع ليس كل المطربين هكذا فهناك أغان يحرص أصحابها على حسن اختيار الكلمات ، والألحان والأداء ، ولا تصاحبها مفاسد .

وإذا كان هناك من يبيح الغناء بأي شكل وعلى أية صورة فإن هناك من يحرمون الغناء جملة وتفصيلاً وإن كان غناء وطنيّاً أو احتفالاًً بأعياد النصر !!

التصوير والنحت

فنكتفي بذكر فتوى الأزهر الشريف في حكم التصوير ، ونحت التماثيل وخلاصتها :

١- القرآن الكريم ذم عبادة الأوثان وردد قصص الأقوام الوثنيين السابقين ومواقف الأنبياء معهم.

٢ – التصوير الضوئي المعروف الآن للإنسان والحيوان والرسم لا بأس بهما متى كان ذلك لأغراض علمية مفيدة للناس، وخلت الصور

---

(١) ولقد صرح أحمد زويل في حوار أجرته معه مجلة " آخر ساعة " المصرية بعد حصوله على جائزة نوبل بأن " كل اكتشافاتى العلمية توصلت إليها على صوت أم كلثوم " ولزويل جائزة سنوية للمواهب الشابة في الغناء العربي .

والرسوم من مظاهر التعظيم ومظنة التكريم وإثارة الغرائز لارتكاب الفواحش والمحرمات.

٣- تحريم النحت والحفر الذي يكون تمثالا كاملا لإنسان أو حيوان.

٤ – آثار الأمم السابقة وسيلة لدراسة تاريخهم علميّاً وسياسيّاً وحربيّاً، وأخذ النافع من هذا التاريخ. وهذا يقتضى جواز إقامة المتاحف.

٥ – اعتبار الآثار سجلاً تاريخيّاً يلزم المحافظة عليه. لأنه من الضرورات العلمية.

٦ –جواز استعمال لعب الصغار ولو على هيئة تماثيل لتعليم الأطفال وتسليتهم" (١)

نأتي إلى فن آخر شاع في زماننا وهو فن التمثيل .

فن التمثيل

إن التمثيل من أهم الفنون التي تجذب الناس وتؤثر فيهم فهو فن مؤثر قادر على التغيير والإصلاح متى قيد الله له رجالاً يخشون الله ويتقونه ، لكن مع الأسف أن هذا الفن الجميل سيطر عليه منذ نشأته الخلعاء والماجنون ، والفسقة ودعاة الغرائز الدنيا – إلا من رحم ربى – فحادوا به عن سواء السبيل لدرجة انه أضحى – في كثير من الأحيان – عنواناً على الفسق والمجون والفحش والسفور ، ومما زاد الطين بلة والداء علة أن أصبح هذا الفن الجميل قاصراً – في الغالب – على هذه الفئة بعدما اكتفي الملتزمون دينيّاً بأن حكموا عليه بالتحريم وعلى أصحابه بالفسق والفجور ، حتى الذين كانون يعملون في هذا المجال

---

(١) "فتاوى الأزهر في مائة عام " .

وهداهم الله وتابوا هجروه – في الغالب – ولم يحاولوا أن يصلحوا ما أفسدوه عن طريق هذا الفن الذي يجيدونه ! والعجيب أن المعتزلين عملوا دعاة للإسلام وزاحموا أهل التخصص في مجال الدعوة !

ورجال الدين يكتفون بإصدار الفتاوى بتحريم الفنون كل الفنون ويظنون أنهم بذلك قد أبرءوا ذمتهم أمام الله ، كما أنه لا يستطيع واحد منهم أن يدعى أنه من رواد السينما أو من مشاهدي الأفلام – وإن كان من باب النقد – فهذا يتنافي مع مكانته الدينية ، وإن تحدث أحدهم عن أحد الأفلام أو المسلسلات اتهم بالرجعية والتخلف ، والتدخل فيما لا علم له به ، وبهذا اتسعت الفجوة بين الفن وأهله ، وبين الدين ورجاله واكتفي كل من الطرفين بالإساءة للآخر وضاع الناس بينهم فلا رجال الدين بينوا لنا المخالفات الشرعية التي تشتمل عليها الأفلام فنقتنع بوجهة نظرهم ، ولا أهل الفن قدموا لنا فناً نظيفاً يبنى ولا يهدم .

حوار بين شيخ مستنير وناقد فني

وأحاول الآن الإجابة عن سؤال مهم وهو ، هل من حق رجل الدين أن ينقد عملاً فنيّاً ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نتخيل أن هناك حواراً بين ناقد نفي ورجل من رجال الدين المستنيرين حول إجابة هذا السؤال .

الشيخ : نعم من حقه .

الناقد : كيف وهو غير متخصص في النقد الفني ؟

– إن رجل الدين عندما ينقد فيلماً ينقد فكرته أولاً ، ثم ينقد ما عساه يكون مخلاً بمبادئ الدين وقيمه .

– وما دخل الدين في الفن ؟! هذا له مجال مغاير لذاك .

- بالطبع الدين له دخل بكل أفعال الإنسان يقوِّمها ويهذبها ، ويميز الخبيث فيها من الطيب .

-الفنون والآداب تخضع لمقاييس فنية أدرى بها أهلها .

- الدين أنزله الله ليكون منهج حياة للبشر وليس فقط عبادة تؤدى ولا علاقة لها بسائر حركة الإنسان .

- لكن هناك مساحة من الحرية أعطاها الله للإنسان لكي يستمتع بحياته ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص : ٧٧] فالحياة ليست كلها عبادة إنما ساعة وساعة .

لقد شرع الله تعالى الدين لسعادة الإنسان في الدارين ، ولا تعارض بين الدين وكل لهو برئ ، إنما الدين يحرم كل ما هو خبيث ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ثم نأتي للآية التي اجتزأتها من سياقها لو ذكرتها كاملة لعرفت المراد بنصيب الإنسان من الدنيا وهو من الطيبات لا الخبائث فإن النبي ﷺ كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء ، ويشرب الماء البارد ، لكنه كان لا يشرب الخمر ولا يشاهد الرقص ، ولا يلعب الميسر .

- لكن من يحكم بكون هذا الأمر خبيثاً أو طيباً ؟! أن العملية نسبية تختلف من إنسان للآخر حسب تعليمه وثقافته وتربيته .

- لقد فصَّل الله تعالى المحرمات في كتابه العزيز وفي سنة نبيه الكريم ، ولم يمت النبي ﷺ إلا وقد اكتمل الدين عقيدة وشريعة وعبادة ومعاملات وأخلاق .. " قدْ تركتُكمْ على البيضاءِ ليلُها كنهارِها، لا يَزِيغُ عنها بعدي إلا هالكٌ، ومنْ يعشْ منكمْ فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكمْ بما عرَفْتمْ منْ سنتِي، وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ، عضُّوا عليها بالنواجذِ " [رواه أحمد وابن ماجة والحاكم] .

- لكن معظم الفنون – إن لم يكن كلها – من محدثات العصر ولم يأت بشأنها نصوص تحرم أو تبيح .

- هناك مبادئ عامة معلومة من الدين بالضرورة وليس هناك مسلم حقاً يجهلها فضلاً عن أن ينكرها مثل : التبرج ، والعرى ، والتكسر في القول والسير ، ومشاهدة الأحضان والقبلات فضلاً عن ممارستها مع غير من لا تحل له عياناً جهاراً .. هذه من المحرمات في الإسلام فإذا اشتمل فن من الفنون عليها أو على بعضها يكون هذا المشهد مُحَرَّماً على من قام به أو من شاهده .

- لكن أحياناً الضرورة الفنية تقتضى أن تظهر ممثلة تؤدى دور راقصة أو ساقطة متبرجة كاشفة عن مواطن الفتنة فيها حتى يصدق الناس أنها راقصة فليس من المعقول أن نأتي بامرأة منتقبة لتؤدى دور راقصة مثلاً ! إن التبرج والعرى والتكسر والأحضان والقبلات وما إلى ذلك إنما هي وسائل لتقديم فن هادف وليست مقصودة لذاتها .

- في الإسلام الوسائل تأخذ حكم المقاصد ، فلا بد أن يكون المقصد شريفاً ووسيلة الوصول إليه شريفة ؛ فالغاية لا تبرر الوسيلة إذ يشترط الإسلام أن تكون الوسيلة مشروعة لغاية مشروعة فلا يصح أن أسرق من الأغنياء لأتصدق على الفقراء أو أتاجر في المخدرات لأبنى جامع " إن اللّه طيِّب لا يقبل إلا طيباً "

والفنان الناجح لو أراد أن يقدم النموذج المنحرف، يمكن أن يقدمه بلمسات لطيفة، كما في قصة يوسف عليه السلام، لكن معظم الفنانين الآن يُحسِّنُون الفاحشة. ومن الممكن أن يكون الفيلم واقعيّاً ويلمس

الأشياء لمساً يبين الانحراف دون الإغراق في تفاصيل تثير غرائز المشاهد وتبعده عن الهدف الرئيس. وقديماً قال البحتري :

وَالشِعرُ لَمحٌ تَكفي إِشارَتُهُ *** وَلَيسَ بِالهَذرِ طُوِّلَت خُطَبُه

ويقول أيضاً :

وَمَعَانٍ لَوْ فَصّلَتها القَوَافي *** هَجّنَتْ شِعرَ جَرْوَلٍ وَلَبيدِ

لكن مع الأسف فإن كثيراً من الفنانين لا يكتفون بالإشارة إلى الانحراف بل يقصدون إلى إثارة الغرائز الجنسية قصداً .

- معنى ذلك أنك ترفض ظهور المرأة في الأعمال الفنية ، والاكتفاء بدور الرجال فقط !

- لا.. أنا لم أقل هذا إنما أقول إن ظهور المرأة في الأعمال الفنية يجب أن يكون كإنسانة تؤدى دوراً لخدمة المجتمع مكملاً لدور الرجل ومتمماً له ، لكن أن تقدم المرأة كأنثى أو كجسد ومهمتها في الفيلم تكمن في غواية الرجال ومهمتها في السينما تكمن في غواية المشاهدين فلا ، وللأسف الشديد لقد أساءت كثير من الأعمال الفنية إلى المرأة بتحويلها إلى جسد فاتن لتروج بها فكراً فاسداً وتثير به غرائز جنسية نائمة ، ولم تقدمها كإنسان يساهم في غرس القيم النبيلة .

- لكن هناك قواعد تعارف عليها أهل هذه الصناعة يجب أن تراعى ولا دخل للدين فيها .

- أولاً : الدين ليس ضد كل فن جميل هادف يرقى بالذوق ويدعو للفضيلة إنما الدين ضد كل انحراف وفساد ورذيلة . ثانياً : نحن مأمورون باتباع الله وليس اتباع أحد سواه ، وقواعد هذا الفن إنما

وضعها من يختلف عنا في الدين واللغة والعادات والتقاليد .. فَلِم يجب علينا تقليدهم فيها ؟! ولِمَ نستورد من الغرب أفلامهم وأزياءهم، وانحرافهم، وعاداتهم ؟ إن أغلب موضوعات السينما المصرية إنما هي مأخوذة من أفلام أجنبية تعالج مشاكلهم بما يتناسب مع قيمهم . فلم هذا الإصرار على التقليد الأعمى ؟ لماذا لا نستقى موضوعات الأفلام من واقع بيئتنا العربية الإسلامية ؟ كما نراعي عادات وقيم هذه البيئة في معالجتها . لماذا لا نعالج مشاكلنا نحن بالوسائل المناسبة لمجتمعاتنا بدلاً من استيراد معالجات لمشاكل غيرنا تجلب لنا المشاكل ، إن المُشاهد لأفلامنا يجد أنها – غالباً – مبتوتة الصلة بينها وبين مجتمعنا، لقد استسهل المؤلفون فاقتبسوا أو سطوا على أفكار الأفلام الأجنبية ولم يفكروا في تأليف جاد يعبر عنا ، واختار المخرجون نفس الطريق فأخرجوا بنفس فكر أساتذتهم الأجانب ، وكذلك فعل الممثلون ، والنتيجة أن أصبحت أفلامنا مسخاً مشوهاً كالغراب الذي أراد أن يقلد مشية الطاووس فلا هو أتقنها ولا هو استطاع أن يعود لمشيته !! .

لماذا لا تكون لنا شخصيتنا المستقلة النابعة من ديننا وأخلاقنا وبيئتنا، إن الغرب تقدمت علومهم ، وانتكست أخلاقهم وفنونهم فلماذا نُصِرُّ على تقليدهم فيما انتكسوا فيه ؟! لماذا لا نقلدهم فقط فيما برعوا فيه من العلوم والمعارف ؟! إن الفنون والآداب وليدة بيئاتها ولا توصف بالتقدم والتخلف بعكس العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجية .. فلا وطن لها ولا جنس فإذا كان أحمد زويل يطرب لأم كلثوم فلا ضير عليه إنما يضير الإنسان أن يجهل الكمبيوتر ويحفظ أغاني مايكل جاكسون !

- معنى هذا أنك تدين كل الفنون والآداب فكلها مبينة على أفكار ومذاهب فنية أجنبية .

-الدين لا يبيح المنكر ولا يُقِرُّ القبيح ويحارب الفساد شرقيّاً كان أو غربيّاً ، فأهلاً بكل جديد في العلم والتكنولوجيا والفن الهادف ، لكن لا .. لكل فكر منحل لا خلق له أو إباحي لا حياء له أو هادم لقيم المجتمع ودينه .

- إن المتصدي لنقد فن التمثيل مثلاً لابد أن يكون دارساً لفن الإخراج والإضاءة والديكور والتمثيل والحركة ، .. . حتى يتسنى له الحكم على الأعمال الفنية ، ورجل دين يجهل كل هذه الأمور بالكلية .

- معك حق أن أتفق معك إن ليس كل رجل دين بقادر على التصدي لنقد الأعمال الفنية إنما يجب أن يعود ذلك إلى اللجان المتخصصة (الرقابة) لكن على أن يكون لهذه اللجان معايير أخلاقية صادر بها تشريع من مجلس الشعب ومصدق عليه من رئيس الجمهورية حتى لا يترك أمر منع العمل الفني أو إباحته للهوى فيمنع فيلماً يتقد نظاماً سياسيّاً فاسداً ويُجَاز فيلمٌ يدعو للرذيلة ويشيع الفاحشة ! لابد من مقاييس محددة تتفق عليها الأمة ولا يترك الأمر لهوي الفنانين أو الرقابة أو المسئولين أو رجال الدين .

- يبدو من كلامك أنك غير راضٍ عن أي عمل فني .

- الحقيقة أن هناك مسلسلات كثيرة ذات مضمون هادف كما أنها في الوقت نفسه ذات قيمة فنية عالية جداً مثل المسلسلات سورية التاريخية مثل : صلاح الدين ، والظاهر بيبرس ، والحجاج ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير وغيرها ،كما يعجبني من المسلسلات المصرية : عمر بن عبد العزيز ، عائلة ونيس ، أبو العلا البشري ،

المال والبنون ، ليالي الحلمية ، هي والمستحيل ، والشهد والدموع ، وإمام الدعاة ... وكثير من المسلسلات الدينية والاجتماعية .

- وماذا عن الأفلام ؟

- للأسف إن السينما تداعب منذ نشأتها الشباك كما أنها تستقى موضوعاتها من أفلام غربية لذا فهي - غالباً - ما تضحى بالفضيلة في سبيل اجتذاب الجمهور وخاصة من المراهقين والمنحلين أخلاقيّاً وهذه هي الفئات التي تذهب إلى السينما خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة ومع ذلك فإن هناك أفلاماً ذات قيمة فنية عالية كما أنها ذات قيمة أخلاقية - وإن كانت لا تخلو من بعض الهنات - مثل : عمر المختار ، في بيتنا رجل ، سواق الأتوبيس ، آخر الرجال المحترمين ، خرج ولم يعد ، العار ، جري الوحوش ، مافيا ، طباخ الرئيس ، عسل أسود ، وغيرها الكثير كما أن معظم الأفلام التي أنتجها التليفزيون المصري كانت أفلاماً جديدة لأنها لم تستهدف الربح ولا إثارة الغرائز مثل : فوزية البرجوازية ، محاكمة علي بابا ، المراكبي وغيرها .

الفنون الغربية وأثر اليهود فيها

هذا عن فنوننا فماذا عن فنون الغرب ؟

لقد استطاع الغرب أن يسخِّر كثيراً من هذه الفنون لخدمة أهدافه ومصالحه فلقد سخرت الشيوعية والنازية والصهيونية هذه الفنون فنشرت أفكارها في كل بلاد العالم وأثَّرت في معظم شعوب الدنيا بأفكارها العنصرية أو الإلحادية أو الإباحية ودرَّت بالإضافة للدعاية لمذاهبهم الهدامة أموالاً طائلة فقد استطاعت أن تحشو رءوس العالم بأفكارها الخبيثة وأن تنظف جيوبهم من عملاتهم النفيسة ، فزيفت وعيهم ، واستولت على أموالهم !!

وانظروا كيف نجحت الصهيونية في خداع العالم وكسب تعاطفه وتأييد مشاريعهم الاستعمارية في الوقت الذي فشل العرب والمسلمون في كسب تأييد الغرب لنصرة حقوقهم المشروعة ، وهذا هو الفرق بين من يُصِرُّ على ركوب الجمل في سباق للطائرات النفاثة !!

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٣- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة

٤- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . " " " " " " " " " "

٥- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . " " " " " " " " " "

٦- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين" مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية. " " " " " " " " " " " "

٧- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع. " " " " " " " " " " " "

٨- أبو بكر الصديق ، ومنزلة الصديقية دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة نحو خطاب ديني جديد

١- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة . دار زهور المعرفة والبركة

٢- في العقيدة والشريعة والأخلاق . " " " " " " " " " "

٣- حوارات مفتوحة مع تلميذتي الصريحة . " " " " " " " " " " " "

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

١- الإسلام والعقل الحديث . دار نوبل للنشر والتوزيع

٢- الإسلام والنفس الإنسانية . " " " " " " " " " "

٣- الإسلام والوجدان .   " "   " "   " "   "   "   "

٤- الإسلام واحتياجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية . " "   " "   " "   "   "

٥- الإسلام والحضارة .   " "   " "   " "   "   "   "

٦- الأزهر تاريخ من الوطنية والوسطية .   " "   " "   " "   "   "   "

٧- مكانة المرأة بين العادات المجحفة والشريعة المنصفة . " "   " "   " "   "   "

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة .   دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو .   دار زهور المعرفة والبركة

٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية   " "   " "   " "   "   "   " "

٤- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي   " "   " "   " "   " "   " "

٥- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي   " "   " "   " "   " "   " "

٦- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء   " "   " "   " "   " "   " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الإستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .
دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي .
دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. " "   " "   " "   " "

٤- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " "   " "   " "   " "

٥-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية .   " "   " "   " "   " "   " "

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ .
دار زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الحضارة المصريّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . دار زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ " " " " " " " " " " "

٣- البحث عن شخصية مصر الحقيقية دار نوبل للنشر والتوزيع

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) دار زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٥- شهادات رموز ومعالم مصرية حديثة على بطولات مصرية مجيدة . (قصص مصورة للنشء والشباب) دار زهور المعرفة والبركة

٦- طرائف ونوادر مدرسين معاصرين . " " " " " " " " " " " " " "

مذكرات أديب مغمور (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٧- أحلام مواطن متفائل .(سيرة فكرية) " " " " " " " " " " " " " "

٨- حكايات جنود في سيناء . (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٩- حكاية لكل امرأة وبنت . (رواية)   " " " " " " " " " " " " " "

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص)   دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " " " " " "

* سلسلة لغز الحضارة المصرية القديمة (٨ قصص) " " " " " " " " " " " "

* سلسلة منجزات الحضارة المصرية القديمة (٦ قصص) " " " " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر ، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه "متى يثور المصريون".

قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .

– نشرت له جريدة الأهرام العربي سلسلة مقالات عرض فيها أربع كتب :

١- أبو وبكر الصديق ومنزلة الصديقية .

٢- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع .

٣- عبقرية محمد للعقاد .

٤- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة .

التليفون المحمول: ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩ -٠١١٤٢٠٤٣٩٤٠

البريد الالكتروني: yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الموضـوع — الصفحة

ما الوجدان ؟

القرآن والوجدان

القلب محل الوجدان

القلب والحب

القلب والجمال

الموضـوع | الصفحة

القلب محل الرحمة

أمراض القلوب

الموضـوع الصفحة

القلب والفنون الجميلة

***